مفارقات رحّال

طبع في لبنان

مفارقات رحّال

د.ماهر بن مهل الرحيلي

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-02-1233-6

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

هاتف الرياض: 966509337722+

هاتف بيروت: 9613223227+

editions.difaf@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

الإهداء

إلى من تحتفي بكل كتاب جديد..

إلى أمي رحمها اللّه..

الراحلة المقيمة..

مع كثير من الشوق!

المحتويات

قُبيل السفر..... 9
جارو..... 11
قلق وثقة.. في مكانيهما!..... 13
عذر غير مقبول!..... 15
مسلمون..... 17
وجوه المطارات!..... 19
في السماء..... 21
الفاجعة السعيدة!..... 23
فرانسوا..... 25
مغامرات!..... 27
الشوق..... 29
نهاية سعيدة!..... 31
مدن تشعر!..... 33
في هذه الرحلة..... 35
البحث عن الجديد!..... 37
مع البياض!..... 39
مصر..... 41
لبنان..... 43
نوايا!..... 45
شجون!..... 47
صورة مع الموناليسا!..... 49
تراث ضائع!..... 51
الشُرفة..... 53
مع الكبار!..... 55

الشِعر.. 57
أين نحن؟..... 59
السائل الأسود!..... 61
طفولة بلا تصريح!..... 63
بعيدا عن النجوم! 65
قطار الزمن وقطارات أُخر!..... 67
مع المرأة!..... 69
من أسرار الطفولة!..... 71
هل المكان يشعر؟..... 73
خطوط وحظوظ!..... 75
خطوط وحظوظ أيضا! 77
من جماليات الفقر!..... 79
من يدري! 81
عودة إلى الأكاديمية!..... 83
خلوة!..... 85
البياض المبارك!..... 87
الحمَام..... 89
كتاب ليس كالكتب أم قارئ ليس كالقراء؟..... 91
بوفيه مفتوح وتأمل مفتوح! 93
جودة! 95
نموذج!..... 97
إدمان!..... 99
عبق الماضي!..... 101
امستردام!..... 103
بعيدا عن النجوم.. مجددا!..... 105
نحو الحقيقة!..... 107
الوداع!..... 109

قُبيل السفر..

ومضة.. هكذا كنت أدعو الواحدة منها، ربما لأنها قصيرة نسبيا، وربما لأنني لا أكتبها إلا حين تباغتني، تماما كالقصيدة.

استغرقت هذه الومضات نحو العام، كثير منـــها كُتـــب في الطائرة، وها أنا الآن أنشرها في الهواء الطلق، آملا أن يجد القارئ شيئا جديدا، ليس فيما رأيت بالتأكيد، فالمَشاهد واحـــدة، ولا امتياز فيها لأحد على أحد، وإنما في استجابة الشعور تجاه هـــذه المشاهد التي تشكلت في ذهني مفارقات في الناس والطبيعة والنظُم وفيّ أنا أيضا، مفارقات محزنة أحيانا، ومثيرة أحيانا، وداعيـــة إلى التأمل أحيانا أخرى.

ماهر

(1)

جارو..

قبل ثلاثة أسابيع من أحداث الحادي عشر من سبتمبر العاصفة، وصلت إلى مطار لوس أنجلس برفقة زوجتي وابني الذي كان سيكمل عامه الأول بعد أيام، كان هذا المطار مختلفا عن أخويه في شيكاغو ونيويورك، ربما لأن المدينة الغربية تختلف في طبيعتها عن مدن الشرق، استلمت حقائبي وتوجهت إلى سيارات الأجرة، كان السائق جالسا يقرأ الصحف ويدخن بإمعان، انتبه لوصولنا فسارع لمساعدتي في وضع الحقائب، سألني عن الوجهة فأخبرته عن الفندق وأشار إلي أن العنوان معروف، بعد دقائق بدأ حديث التعارف، وقد قال لي باعتزاز: أنا روسي، وتتابع الحديث.

(جارو) -بالجيم المصرية كما يدعوها علماء اللهجات-ذو العينين الواسعتين والملامح الخمسينية، كان حديثه ينبئ بثقافة جيدة وحس فكاهي عال، اقترح علي بعفوية: لم لا تبدأ بسانديغو وديزني لاند وتجعل محطتك الأخيرة لوس أنجلس؟ وسأتدبر أمر إلغاء الحجز السابق دون رسوم. وجدتني موافقا دون تحفظ، فزادت مساحة الارتياح بيننا.

بحسه الفكاهي كان يتحدث عن الأمـــريكيين وقصصـــه الطريفة معهم وبلقاءاته مع نجوم السينما المتخفين عن الجمهور، إلا أن الضحك لم يخل من نقد اجتماعي لهم أيضا.

منها أنهم يحبون كلابهم أكثر من أبنائهم، كنت أضحك معه أيضا مستمتعا بحديثه ومستحضرا كيف تختلف الثقافات وتختلط دون تمازج أحيانا. حين وصلنا الفندق اتفقنا -بمبادرة منـــه- أن يعود إلي بعد يومين، وحين هممت أن أدفع له الأجـــرة أصـــر بالاكتفاء بدفعة وقال لي بمباشرة الروس المعروفة: إنني أثق بـــك فملامحك صادقة.

هل استطاع جارو في خمس ساعات أن يقرأ ما لم يســـتطع غيره طيلة خمس سنوات!؟

(2)

قلق وثقة.. في مكانيهما!

لا أذكر اسم الفندق الذي أقمنا فيه بمدينة سانديبغو، لكن أتذكر الغرفة الفسيحة في الدور الأرضي أمام ردهة أشبه ماتكون بغابة من الأشجار الاستوائية، لكنها صناعية طبعا.

في تلك الغرفة ما زلت أذكر الساعات الطويلة التي قضيناها مع ابني الصغير والضحكات البريئة المتخابثة التي كانت تصدر منه.

لم يكن النوم منتظما في تلك الليلتين اللتين قضيناهما هناك وكان طفلنا نعمة مرسلة من السماء، إذ يمضي الوقت دون أن نشعر.

من المواقف التي مرت علينا هناك: أن شاهدنا عروسا تزف في فناء الفندق وسط صديقاتها، كان المنظر جميلا، وكنا نتابعها بنظراتنا حتى وصلنا إلى حشد كبير من الرجال لابسي القبعات السوداء، وفوجئنا أنهم كانوا ينظرون إلينا بتركيز وتأمل، لأن هيأتنا تدل على أننا على الأقل لسنا يهودا! ارتبكت زوجتي وكنت تحت تأثير المفاجأة، لكننا ارتأينا أن نغادر المكان بهدوء.

في سانديغو أذكر أني حجزت في مطعم فـــاخر لتنـــاول الوجبة الأمريكية التقليدية (الستيك)، كان النادل محترفا خـــبيرا وسمحا جدا، طرح علي أسئلة عديدة وجاء إلينا بأنواع عديـــدة من اللحم النيء قبل الطهي لاختيار الأنسب، أذكر أني قلت لـــه وقد عرّفني باسمه: أثق بأنك ستختار الأنسب والألذ يا يعقـــوب (جيكوب).

لقد كانت الوجبة لذيذة جدا، ولازالت مضرب المثل عندي وعند زوجتي للمطاعم التي تهتم بالعميل وتحترمه.. لا أنســـى أن يعقوب اليهودي قال لي في آخر الأمسية: أتمـــنى أن ثقتـــك لم تذهب سدى سيدي!

(3)

عذر غير مقبول!

"عذرا سيدي لقد وقع عليك الاختيار العشـــوائي لوضـــع حقائبك في التفتيش الآلي" قيلت لي هذه العبارة ثلاث مرات في مطارات أمريكا! هل ترى كانوا يتخوفون من هجمات محتملة؟ لم يكن هناك سعودي غيري ضمن من أراهم حولي وكنت أنـــا المختار دوما!

تجعلني هذه المواقف أشعر بالضيق إلى الآن كما لـــو أنهـــا حديثة الأثر وليست قديمة منذ خمسة عشر عاما!

لكن هل كانت الوحيدة؟

بالطبع لا، فقارة كأمريكا لابد أن تمر فيها علـــى تجـــارب عديدة ومتنوعة! إذا تجاوزت مسألة ضياع حقائبـــي أو تأخرها مرتين خلال أسبوع واحد وبرود التعامل من موظفي الطيران في المرتين، إذا تجاوزت هذا كله فإنني لا أنسى في لـــوس أنجلـــس نظرات الكراهية الشديدة التي لمسناها في مطعم (شواتس) الذي يملكه الممثل الأمريكي الشهير أرنولد شـــواترزنيجر.. بـــالطبع أصحاب النظرات ليسوا العاملين في المطعم، وإنما بعض الزبـــائن

الموجودين وقتها، المؤسف أنهم كانوا كبارا في السن! ألم نـــتعلم أن الكبار يتمتعون بقدر كبير من الحكمة؟ أين هي إذن؟

بذكائه لحظ جارو سلوكهم غير الحضاري، فقال لي: هؤلاء أصحاب الأعناق الحمراء احذرهم!لكني لم أشأ أن أفسد يـــومي بهم، أذكر أني ذهبت إلى دورة المياة لألبـــي نداء الطبيعة كمـــا تقول الإنجليزية المهذبة، كان هناك برنامج صوتي يعلم مرتـــادي دورات المياه ألفاظا ألمانية نطقا ومعنى، أعجبتني الفكرة فبقـــدر تقبلك للآخر ستتعلم وترتقي.

(4)

مسلمون..

التقيت بمسلمين ثلاث مرات في أمريكا، جميعها كانت في شيكاغو، الأولى كانت بالمطار، وكان سائق الأجرة مصريا، لكنه كان بلا روح مصرية، تلك الروح التي أحببت خفتها وحلاوتها، ولعله معذور، فللغربة عوامل تعرية معروفة تطأ الأرواح حتى تحيلها إلى رمل أو رماد!

الثانية كانت ذات صباح، حين طلبت من سائق الأجرة أن يوصلني إلى حديقة الحيوان، كان هادئا متزنا وقليل الحديث، حين علم أني من المدينة المنورة كادت عيناه تفيضان بالدمع! في مثل هذه الحالات أسأل نفسي دوما: هل تعلم كم أنت محظوظ بمدينتك؟!

كانت الثالثة في مطعم بإحدى أحياء شيكاغو، قضينا وقتا ممتعا بصحبة سلطان ابني المشاغب، أذكر أننا تناولنا قطعة من الكيك بالشوكولاته، لم أتنبه أن قطرات من الكحول تجري في عروقها! ما أجمل الخطأ المغتفر الذي لاتحاسب عليه، طبعا أقصد مغفرة العزيز الحكيم وليس البشر.

حين هممنا بالخروج سبقتني زوجتي وابني بينما كنت ألبس المعطف، وحين مررت بالطاولة التي خلفي مباشرة، إذا بالرجل الجالس يقبض على ذراعي ويقول لي: مرحبا! أنا مسلم!، نظرت إليه فوجدته رجلا شابا ملامحه تشبه ملامح القـــارة الإفريقيـــة السمراء، سألني من أين أنت بعد أن لحظ سروري به، قلت له: من المدينة وأنت؟ حينها أجابني متعجبا: أنا من هنا!

لا أدري لم افترضت أنه ليس أمريكيا!!

(5)

وجوه المطارات!

تختلف المطارات كاختلاف نفوس البشر، منها ما يكـــون هاشا باشا حين قدومك، ومنها ما تشتمّ منها رائحة الرسميـــات بمجرد أن تلمس مقدمة شَعرها!

الأدهى والأمرّ أننا نشعر بمرارة التعامل في مطارات بلادنا! لَمَ تُرى نحمل هذا الإحساس القاسي تُجاهها!

في مطاراتنا بدءاً بالمواعيد وتنظيم الصالات وإحساس العاملين بمسؤولياتهم بل وحتى بمظاهرهم التي يُفترض أن تكون رمزا للوطن كله؛ حيث تجد الكرش المتدلي والعيون الذابلة والملامح الكئيبة إن لم تكن متجهمة! كل هذا من فعلك يا وطني!؟

حسنا بعيدا عن الوطن وهمومه تذكرت الآن مطار شيكاغو المدينة العاصفة! الذي أعجبني فيه أنه قلِق يمثل المدينة نفســـها في قلقها، المطارات الصادقة أحترمها، أحترم مطار نيويورك jfk لأنه مليء باليهود المتجهين للقدس و لم يشعرني بارتيـــاح منـــذ أول وهلة، الأمر يشبه مدى ارتياحنا لشخص ما نتيجـــة لوضـــوحه وصراحته معنا بغض النظر عن مدى وده أو عداوته لي!

من المطارات التي لاتستقبلك بابتسامة: مطار أمستردام، هذا المطار يحتوي على شحنات سالبة تكفي قارة، حين هبطت طائرتنا طُلب منا -المسافرين- أن نجهز جوازاتنا لأننا سنسأل عنها بمجرد خروجنا من الطائرة ووصولنا آخر الخرطوش!، وبالفعل هذا ماحصل، وجدنا أربعة من الضباط ينتظرون المسافرين لإجراء مقابلة شخصية سريعة، والغريب أن هذا لم يوفر الوقت مع موظف الجوازات لاحقا، إذ تكرر السؤال نفسه: ماسبب زيارتك لأمستردام؟

(6)

في السماء..

ما زلت أعجب من لذاذة الصلاة في الطائرة؟ هل هو بسبب استشعاري لقرب السماء السابعة؟ أم لبعدي عن الأرض موطن الشرور؟

أذكر أول صلاة شاهدتها في طائرة كانت لامرأة عجوز، ولايزال خشوعها ماثلا في شعوري حتى هذه اللحظة!

على أية حال، الصلاة في الطائرة خفيفة لطيفة بعيدة غالبا عن الرياء، لأنها في الغالب تؤدى على مقعد الطائرة فلا أحد يراك غير ربك العليم الخبير.

أتذكر أني ابتدأت مرةً صلاتي بقرب رجل ستيني كان منهمكا في قراءة الصحف الإخبارية، لكنه حين تنبه لي أغلق الصحيفة التي كانت في يده كمشهد أقرب ما يكون لإغلاق محطات الطرق وقت الصلاة في بلادي، لعل هذا العجوز كان يتأمل أو يتعبد بطريقته الخاصة؟ لن أخوض في هذا؛ فإلهي لا يظلم مثقال ذرة من عمل صالح.

سؤال آخر ملحّ هنا، ماذا عن الدعوات التي نغفل عنها في الطائرة؟ بالطبع دعاء السفر من أهمها، وبالطبع أيضا ليست الخطوط في بلادي أفضل الخطوط لكونها تتلوه على مسامع المسافرين قبل الإقلاع، فالعبادة نية وإخلاص وتكامل في السر قبل العلانية!

في بعض الطائرات توجد مصليات مخصصة، لاتخلو الصلاة فيها من مشاهَدات تسترعي التأمل، في مثل هذه الحالات يتوالى المصلون على المكان المخصص للصلاة آخر الطائرة ليصلوا جماعة تلو الأخرى، مما يستدعي مراعاة المقام وتأدية الصلاة بتعجل لا يؤثر على الخشوع، صليت مرة الفجر وقد أراد الإمام أن يقرأ ماينا سب المعنى فقرأ سورة الفجر! أذكر مرة أنني حين أديت التسليمتين وجدتني بجوار أخت تصلي أيضا، هل السماء تسمو بأرواحنا ونياتنا؟!

(7)

الفاجعة السعيدة!

بعد العودة بأسابيع ثلاثة؛ أتذكر ذلك الظهر الذي صحوت فيه كسولا جدا، خرجت إلى الصالة وجلست هناك مقابل التلفاز، وعلى غير العادة أدرته على قناة إخبارية لا أتذكرها الآن، كانت أخبارا عاجلة عن ضرب برجين في نيويورك!

يا إلهي... حينها كانت أكبر قفزة أديتها بامتياز وبروح مفعمة بالطاقة، كانت قفزة تذكرني بقفزات روكي (Rocky) المعروفة بعد أن ينهي تدريباته بنجاح!

تُرى ما الذي حصل وقتها؟ هل هي الكراهية؟ ساءلت نفسي كثيرا؛ لاسيما أنني عدت قريبا من أمريكا.

إلى الآن؛ وبعد خمسة عشر عاما مازلت أشكك في إنسانيتي تلك اللحظة التي غمرتني فيها الفرحة لسقوط برجين في نيويورك دون التفات للتفاصيل. لكن هل الأمر يتعلق بالإنسانية فعلا، أم هي مجرد رد فعل تجاه السياسة الأمريكية آنذاك؟!

على أية حال.. لم أتوقع هذا التصرف يصدر مني، وفي الوقت نفسه لن ألوم نفسي أبدًا، أحيانا يكون الصائد والفريسة واحدا..!

الكراهية التي يكنها لك الآخرون قد تكون من السنن الكونية، لكن أن تصنعها أنت داخلهم فلابد حينئذ من مساءلة الذات بشفافية.

أمريكا، الدولة التي سحرت العالم وأبهرته، وهزته وأحرقته أيضا، لابد أن نختلف حولها، ولابد أن أختلف مع ذاتي أيضا حولها. لم أنس صدمتي في نيويورك حين رأيت بعيني تزييف الإعلام الأمريكي للقضية العربية الفلسطينية في تلفاز الغرفة بالفندق، أتذكر أنني لم أغادر غرفتي ذاك اليوم! فيما بعد.. لم أصدم حين وجدت الجهل التام من الأمريكيين بتفاصيل هذه القضية!

(8)

فرانسوا

في صباح جميل من صباحات نيس رافقت وزوجتي مرشدا سياحيا ليصحبنا في الجزء التاريخي القديم من مدينة نيس، الذي أعلمه أن السياح ينجذبون لسواحل نيس وكان وملاهيها الليلية، لكن حمدت الله أن بها بقية من تاريخ، عندما وصلنا لم نجد متحفا أو قصورا تاريخية، ما وجدناه مجرد بيوت دافئة مضى عليها مئات السنين وقد ضمت بعضها بأريحية، بعد أن توقفنا بالسيارة وترجلنا؛ مشينا كثيرا صعودا إلى الأعلى، سألني فرانسوا: أتود تناول إفطار فرنسي تقليدي؟

أجبته مباشرة: بالطبع!

أؤمن أن الغذاء ثقافة؛ وإن أردنا أن نتعرف على ثقافات جديدة فعلينا أن نجرب وجبة تقليدية.

توقفنا عند امرأة عجوز لم أفهم من حديثها وإيماءاتها غير ابتسامات قلبية صادقة، كانت وجبة إفطار رائعة، تناولنا فيها وجبة (الكريب)، والأروع منها مكان حوض المغسلة في الدور

العلوي والخطوات التي استغرقتُها في تأمل البيـــت الأوروبـــــي البسيط ورائحته الصادقة.

بالنسبة لفرانسوا فقد كان محترفا ومؤدبا، كما أعجـــبني في ثقافته التاريخية، لا أنسى حين قال لي بعد حديث مطـــول عـــن الثقافة الأمريكية: نحن – الفرنسيين خاصة والأوروبيين عامـــة– سمحت لنا الحروب الصليبية أن نفهمكم ونقدر ثقافتكم أكثر من الأمريكيين.

أذكر أني تساءلت سرًا: أليس لأمريكا حملات صليبية أيضا؟

(9)

مغامرات!

المدن التي تسمح لنا بالمغامرة لاننساها بسهولة، ما أغرب ذاك المنظر وأنا معلق في الهواء لايحاذيني سوى الجبال الشاهقة وبضعة طيور سويسرية، كنت أرى زوجتي وابني وابنتي ينتظرونني في الساحة الخضراء الكبيرة التي تمتاز بها انترلاكن، كانت مغامرة جميلة وسر جمالها أنها الأولى، حين أعدت الكرّة بعد سنتين لم أشعر بالطاقة ذاتها في المرة الأولى، لذا فالسر ليس في المغامرة فحسب بل في توقيتها وأوليتها أيضا.

من المغامرات التي أحسبها أنعشت حياتي، غوصي مع أسماك القرش في دبي مول، لا أنسى خوفي الشديد في بداية الغوص حتى برفقة غواص محترف، حين واجهت قرشا ضخما حينها تذكرت تحذير المدرب ألا أخرج فقاقيع كثيرة أثناء قربه مني! يا إلهي.. كان منظرا غير عادي، طبعا زال الخوف وتحول إلى سعادة غامرة حينما غصنا إلى القاع واقتربت من أولادي الذين كانوا يراقبون أباهم الغواص الشجاع!

ما يزال ابني يزيد حتى الآن يخبرني كم أنا قـــوي لأنـــني لا أهاب القروش! تُرى متى يمكنني أن أخبره الحقيقـــة كاملـــة وأن الخوف يصنع الأقوياء!

من المغامرات اللطيفة محاولتي اجتياز النهر في غابة (بولتون آبـــي) في بريطانيا، كانت هناك صخور تشكل عتبات متلاحقة لتمكن من عبور النهر، بدا لي الأمر سهلا، ولكن لم يكن كذلك حين بدأت فعليا، بعض الصخور لم يكن ثابتا تماما، ومجـــرد أن أبتل بماء النهر البارد كانت فكرة غير محبذة! ممـــا لم أحســـب حسابه، أن يواجهني طفلان آتيان من الجهة المقابلة، ولابد حينئذ من التنسيق لتبادل المواقع بخفة وثبات، أغلب تحدياتنا يصـــنعها الآخرون على مايبدو.. !

(10)

الشوق..

من ملامح السفر.. أن يخلو من شعائر الشوق في الـــذهاب ويكتظ بها في الإياب.

عائد أنا الآن من البندقية تجاه بلادي، ووجـــدت نفســـي بعد تأمل أفتقد أمي التي لن يقربها الشوق ولن يبعـــدها أيضـــا عني.

كانت أمي أكثر من يسأل عن موعد عودتي، اعتـــدت أن أستحضر صوتها العاتب وسؤالها المسهب أثناء رحلة العودة وأنا على مقعد الطائرة، لكنني أفتقد كل هذا الآن. نعـــم أفتقـــده، والسبب: أنه لا أم لي اليوم.

ما الذي أريد قوله هنا؟ أهناك هدف ما أم إنني أثرثر وأبوح بمشاعر طيارة؟

المُحَب بصدق أو بالفطرة.. في نعمة لايعلمها أغلب الناس، وربما هو لن يعلم بها إلا بفقدها!

كانت رحمها الله تحب السفر والانطلاق، تُرى لم الإنســـان يحب السفر وهو قطعة من العذاب كما يقال!؟

إنني في هذه اللحظة أتمنى رحلة أخيرة برفقتها لأحمل عنـــها عناء السفر وأترك بهجته مقيمة في قلبها!

في آخر سفرة لي إلى مانشستر كنت قادرا علـــى الغيـــاب شهرا كاملا، لم أكن لأغيب هذه المدة في حياتها رحمها الله. أفكر الآن قائلا: أمامك الآن الكثير من الأسفار لتنجز الكـــثير مـــن الغيابات أيضا على مايبدو! أصبحت قادرا على الربط الآن بين الشعور بالغربة وطول الغياب في السفر، كيف للغربة أن تعـــالَج بغربة؟! رحم الله أبا نواس، هل كان ينظر إلى هذا المعنى حـــين قال: وداوها بالتي كانت هي الداء!؟

للحديث بقايا..

(11)

نهاية سعيدة!

لم أدرك أنني من مواليد برج القوس إلا بعد عشرين عاما من مولدي، ربما لأن ثقافة الأبراج لم تكن شائعة في محيطي، في هـــذا العلم يقال إن مواليد القوس عاشقون للرحلات ونقطة ضـــعفهم الحرية، هل هذا يفسر مللي السريع وحبـــي للأسفار؟! ربما.

في طفولتي اتفق إخوتي الأكبر سنا على الســـفر بمباركـــة والدي رحمه الله، وقد رأوا بـــي كتلة من أحجار عثـــرة قـــد تبطئهم أو تسبب لهم تعبا لاداعي له، الحسرة مازال طعمها عالقا في قلبـــي، أراني ذلك الطفل الذي يتساءل بمرارة لم أنا فقـــط يتركونني مالفرق بيني وبين أخي الذي يكبرني مباشرة؟

الطريف أنني كنت أنصت لأخي الكبير وهو يمارس معـــي ألاعيب الإقناع دون جدوى وأضحك داخلي سخرية من طريقة تفكيره، لا أبالغ إن قلت إنني أحاول تفادي مثل هذه الأساليب مع أبنائي الآن، أحاول دوما أن لا أستهين بقـــدرات الطفـــل وذكائه، ترى كم من القدرات حرمنا أطفالنـــا منـــها بســـبب قناعاتنا باستحالة إتقانهم لها!

ذهب إخوتي وغابوا فترة ليست قصيرة، أجمل ما في الأمـــر أنني رافقت والدي وحدي وقد خلا لي الجـــو تمامـــا وازدادت أحاديث الطفل الصغير الجانبية مع أبيه الخمسيني. من الذكريات الجميلة آنئذ أن والدي اضطر لقيادة سيارته بنفسه وكنت أستمتع كثيرا برفقته وتأمله وهو يقود.

تلك الأيام على قدر مابدأت مؤلمة، لكنها انتهت ولها أجمل الأثر العميق في نفسي، فقد وعيت معنى أن تكون الساعد الأيمن لمن يحبك ويفضُلك قدرا، ووعيت بعدها بكثير أننا قد نسافر عبر تجارب جديدة دون أن نتخطى مدننا التي نعيش فيها.

(12)

مدن تشعر!

دائما أسأل نفسي: كيف تشعر تجاهنا المدن والبلدان حين نـــزورها في مراحل عمرية مختلفة؟

هذا السؤال يجعلني أتذكر -طبعا- البلدان التي ينطبق عليها هذا الوصف وهي مصر وتركيا وإنجلترا.

أكتب الآن وأتعجب، من بين المدن والبلدان الكثيرة ثلاثـــة بلدان فحسب هي من تعرفت علي عن كثب!

ترى لو سئلتْ عني ماذا ستقول؟ أعتقد والعلم عند الله أنها لن ترصد كثيرا من الفروق، فالطفل الصامت مـــازال الرجـــل الصامت، والتأمل يأخذ من كليهما بقدر لاتغير فيه. أمر واحـــد لعلها تشير إليه، وهو أن الابتسامة في الرجل مني أصبحت أكثر منها في الطفل، وأن الرجل صار يبحث عن مغامرات الطفولـــة التي لم تتح له أو لم يخترها، ليس بالضرورة ليجربها بعد أن صار رجلا، فأحيانا كثيرة يكفيه أن يشاهد استمتاع صغاره بها.

المدن التي لم ترني إلا رجلا أنوي زيارتها الآن بكـــثير مـــن الطفولة، والمدن التي استقبلتني طفلا سأعود إليها بشـــيء مـــن

الشيب في رأسي علها تحتضنني وتكفيني مؤونة التعارف من جديد!

حسنا ماذا عن المدن التي لم ترني حتى الآن؟

أظن أنني في حالة توازن وأنا قرب الأربعين، طبعا أعني التوازن بين الطفولة والرجولة وهو الوجه الذي أحب أن تراني به المدن وأهلها على السواء! ينصح الحكماء دوما بالحفاظ على الطفولة داخلنا، ولعلي أضيف إلى هذه النصيحة العظيمة أمرا أخيرا.. وهو أن السفر خير وسيلة للحفاظ على طفولتنا!

(13)

في هذه الرحلة..

هذه المرة اصطحبني إخواني معهم في الرحلة الثانية بمباركة أيضا من والدي رحمه الله، أذكر وأنا في غمرة السعادة بالخبر أنني استأذنت والدي في بعض المال لشراء ملابس، كانت فكرتي الكبرى عن لندن أن المطر لايفارقها، فاشتريت معطفا جلديا لونه أزرق غامق ومخطط بالأحمر.

كان أحد إخوتي لا هم له غير السخرية تلك الأيام، وقد نلت حظا لابأس به منها بخصوص هذا المعطف، لقد كان المعطف رفيقا صادقا مخلصا تحت المطر، ولم يلجئني إلى استعمال المظلة كما فعل بقية إخوتي.

في هذه الرحلة مررت بتجربة قاسية حين كنت في مسبح الفندق بتونس الخضراء، وبحسي المغامر الفضولي المعتاد أردت أن أسبح مع الكبار فقفزت من الجهة الأخرى العميقة، طبعا لا أتذكر شيئا بعدها سوى عملية إنقاذي وإخراج الماء من صدري!

في هذه الرحلة أيضا أتذكر قميصا تشاركت فيه أنا وأخي، بالنسبة للطفل، مشاركة الأمور الخاصة أمر

خطير وحساس، تلك كانت تجربتي الأولى المذهلة في المشاركة!

في هذه الرحلة تعلمت أن الماء الساخن الذي اعتدت الاستحمام فيه قد يكون طبيعيا خالصا ينبع من بين الصخور، ما أجمل المعلومات الحياتية التي نستقيها عمليا، بالذات في وجدان الطفل الصغير!

في هذه الرحلة رأيت بأم عيني كيف يحصل حادث السيارة حين يرتطم جسم غريب بزجاج السيارة فيحطمه وكان هذا المنظر أمامي مباشرة في سيارتنا!

في هذه الرحلة رأيت فتاة تهدي قلبا رسمتْه في الهواء، لكنني للأسف لم أتأكد إن كان لي أم لا فقد أغمضت عيني هاربا!

(14)

البحث عن الجديد!

كان يدعوني إلى غرفته بالفندق كل صباح لاحتساء القهوة التي عرفتها منذ طفولتي، بالطبع كانت لذيذة ولكنها فوتت ربما طقوسَ الصباح الشرق آسيوية.

من أهم ما يحقق لي السعادة برحلة ما؛ أن أعي الهدف المنشود منها.

(تغيير الجو) ليس هدفا أبدًا إن كان المقصود بالجو مجرد المشاهدات والمناظر، أعترف أن لي أهدافا غريبة أحيانا، منها ألّا أرى عربيا، فأنا لم أتجشم المسافات الطويلة وأتخير القرى وأعالي الجبال لكي أتحدث العربية وأكرر الثقافة ذاتها وأتناول المندي والكباب العربي! السفر في وجداني ثقافة جديدة، شعرت بإحباطات حين أفاجأ بعربي بدولة أوروبية أو شرق آسيوية يعرض علي فعاليات سياحية معرّبة، حسنا قد أُتهم في انتمائي الآن لكن لايهم فالمسألة ثقافة في رأيي أولا وآخرا. وإني لأعجب ممن يسافر لأوروبا يصطحب معه كيسا من الأرز بسمتي ومغلفات من الخبز الشامي!

من الطريف أنني كنت في مطعم إيطالي وسمعت عائلة خليجية من الطاولة خلفي، يسألون النادل دون نظر في القائمة إن كانوا يقدمون طبقا من الأرز باللحم الضاني!

كنت أتعجب من تناول الأرز إفطارا في شرق آسيا، حتى علمت من صديق خبير بالثقافة الماليزية أنها عادة المزارعين، حيث يتقوون على الجهد الطويل الذي ينتظرهم بمثل هذه الوجبات التي تحميهم من الجوع. سيكون من الجيد أن نفعل مثلهم ولكن هل نستطيع أكله بطريقة صحية كما يفعلون!

أتيح لي في برشلونة أن أتناول أطباقا أندلسية، هل يمكن تخيل كيف يكون الطعام شجيا؟ كأن تتذكر أمك المتوفاة حين تتذوق طبقها المفضل، غير أن الأم هنا هي الأندلس السليبة!

(15)

مع البياض!

حتى المدن تبرد! نعم شأنها شأن البشر، تـــتغير شخصـــيتها لكنها لاتنسى محبيها.

باريس وجدتها أجمل في غير الصيف وكذلك مدن سويسرا، ربما لأننا نعيش الصيف في فصول طويلة ممتدة، وربما لأنهـــا في الشتاء تنصت أكثر مما تحكي، وفي الخريف قليل من يزورونهـــا فأجد نفسي في خلوة معها، أما الربيع فيعتبر شتاء بمقاييسنا نحن أبناء الجزيرة العربية.

أول تجربة لي مع التزلج على الجليد كانت في المغرب، لا أذكر المكان، كنت في الابتدائية حينها، لكنني أتذكر والدي رحمه الله حين أوصى بـــي أحد العاملين هناك، فأخذني و لم يراع قامتي الضئيلة فهيأ لي مزلاجين ضخمين لايصلحان إلا للبالغين الأشداء! طبعا النتيجـــة كانت سقطات متكررة وإحباطا يشوبه الكثير من الثلج. انقطعـــت بعدها عن التزلج و لم أعد إليه إلا بعد قرابة عشرين عاما في سويسرا! الغريب أني كنت حريصا جدا في مقاس المزلاجين مع أن المقاس الآن ليس مهما، لكنها تجارب الطفولة تنحفر داخلنا فلاننساها.

في الثلج لابد للطفل داخلنا أن يظهر، قهقهات ونوايا بيضاء مثله تماما، وعثرات، وفرحة بريئة بأقل الإنجازات، وعدم اكتفاء مهما طال الوقت!

عادة يكون الوصول إلى قمم الثلج بالتلفريك، لكن قمة فراويوخ في سويسرا كانت مختلفة تماما، وصلت إليها برفقة العائلة عن طريق القطار، كان القطار يخترق بنا الجبال العاتية، حتى وصلنا أعلى قمة في أوروبا، يفخر السويسريون بأنهم قاهرو الجبال وحق لهم ذلك، كنت أحكي لزوجتي حينها عن مشروع الطريق الجديد الذي يربط المدينة بينبع والذي كان سيوفر قرابة 100 كيلو متر لكنه تعثر رغم وجود الدراسة، وكان ذلك بسبب بضعة جبال!

(16)

مصر

البلد الوحيد الذي يمكن أن يحلل شخصيتي، وأثق في مصداقية رؤاه حولي هو مصر، نعم مصر.

لدي صور أحتفظ بها تشير إلى وقوفي بين أخوتي على شاطئ الإسكندرية، وإلى جلوسي في إحدى المطاعم المكشوفة في الهواء الطلق بجانب عبق أمي رحمها الله، لكني لا أتذكر شيئا من تلك الأيام الجميلة، لذا أجدني مدينا بالكثير لهذه الصور!

زرتها مرتين بعد ذلك طفلا أيضا، لكن بذاكرة حادة لم تملأها الحياة بأحداثها، كنت برفقة والديّ وإخوتي، وانطبعت داخلي حينها لمسات إنسانية جميلة، منها حب المشي وتأمل الناس، أذكر والدي وحبه للبسمة المصرية، ذات مساء بينما كنا في سير طويل إذا بوالدي ينحرف بنا إلى موكب زفاف بسيط في أحد الشوارع، تبعناه طبعا ووجدنا أنفسنا في لحظات نشارك أهل العرس فرحتهم كأقرباء وأكثر وسط احتفاء وكرم مصري أصيل.

زرت مصر بعدها مع زوجتي وابني، وقد تغير الفكر وثقل بالتأمل والشغف بالتاريخ والحضارة، كنت أتساءل عن كرمة ابن هانئ محل إقامة شوقي، وتحدثت مليا مع أبـــي الهـــول، وزرت أحياء مصر القديمة، واختلفت إلى جامعات الأزهر وعين شمـــس والقاهرة.

زرتها المرة الأخيرة مع عضوين جديدن من أعضاء الأسرة: لينة ويزيد، كانت الأحياء الجديدة المطورة في تزايد، وملاهـــي الأطفال المغرية في تنافس، في هذه الرحلة اســـتطعت أن أتخيـــل سعادتي التي لا أذكر منها شيئا في طفولتي الأولى، بعد أن رأيتها على محيا أولادي الثلاثة.

أريد أن أقول: إن أطفالنا هم فرصة ثانية لاستعادة طفولتنا، هل فكرنا بهذه الطريقة؟!

(17)

لبنان

لبنان.. البلد العربـــي الوحيد الذي زرته ويقدم ثقافة عربية غربية معا، كانت سفراتي إليها جميعا بدافع العمل، وجميعها برفقة إخواني أو أحدهم.

في لبنان تعاملت عن كثب مع العرب غير المســـلمين، ومـــع المسلمين من طوائف مختلفة، ومع الأرمن، هناك أستطيع القول أنني وجدت أولى محطات الانطلاق نحو الآخر الذي لم أعتد عليه.

في لبنان الأناقة مسألة لاتقبل التنازل أبدا، لكنني صـــدمت أحيانا في كونها منصبة على المظهر دون المخبر، لعل المشكلة في ذلك لكون المجتمع الذي تعمقت فيه مجتمع تجارة وأعمال.

أول شتاء صدمني كان لبنانيا، وأول موسيقا تغلغلـــت في أعماقي كانت بدون كلمات، استمعت إليها وأنا مع الســـائق، وصارت لي صحبة بعدها مع هذا النوع من الموسيقا واغتنيـــت عن الكلام.

يوما ما طلبت من السائق اللبناني أن يوصـــلني إلى مكـــان لشراء بعض الحلويات اللبنانية الأصيلة، فأخذني إلى أفضل متجر

حسب وصفه، كان البائع رجلا كبيرا في السن، حسن المعاملة كريما، ودار بيننا حديث ودي، سألته أنت من أي الديار اللبنانية، فأجابني ورددت عليه: أنعم وأكرم. حين رجعت إلى سيارتي برفقة السائق سألني ممتعضا عن سبب قولي ذلك، وبعد لحظات علمت أنهما مختلفا المذهب، وكانت لحظة لا أنساها!

تُرى كم لبنان في عالمنا العربي الآن؟ ليس لبنان هو الوحيد في هذا، ولكن النموذج الأول يبقى صاحب الامتياز دوما في قوة التأثير!

(18)

نوايا!

ما أعلمه يقينا أنني كنت في غاية الأدب والاحترام حين سألت شرطي مطار فرانكفورت عن مكتب استرجاع الضرائب، لكنه تجاهلني تماما، فأعدت السؤال مرة أخرى وإذا به يرفع صوته ويهزأ ويزمجر بحركات بهلوانية ساخرة! يا إلهي هل نحن في دولة أوروبية متحضرة فعلا؟ انسحبت بكل هدوء وبعد جهد اهتديت إلى المكتب أنا وأخي ثم عدنا لننتظر إجراءات السفر.

في هذه الأثناء يبدو أن الحقد النازي لم يهدأ، لحظت قدومه متوجها إلينا مع أربعة عساكر يقودهم ضابط، سألنا الضابط عن الجوازات وسبب انتظارنا فأخبرته بالتفاصيل و لم يجد مايريب فشكرني ومضى، ومن خلفه رمقني صاحبنا بنظرة كراهية جديدة.

الكراهية تشوه الأوطان وتبرز القبح في البلدان مهما تزينت، مع أنني أمضيت أياما لاتنسى في دوسيلدورف عروس الشمال الألماني إلا أنني لا أنوي العودة إلى ألمانيا.

لاأدري لم تذكرت الآن تلك الفتاة الهندية البريطانية التي حادثتها يوما، أخبرتني أنها مسلمة وتنوي أداء الحج، فقلت لها

بعفوية العربـــي: مرحبا بكم ضيوفا علينا، فما كان منها إلا أن غضبت وقالت نحن لسنا ضيوفا على أحد. السؤال: ثقافة التعامل مع الوافد إلى أي مدى تختلف بين شعوب الأرض؟

من التجارب التي تتكرر محاولات النصب التي نتعرض لهـــا من سائقي الأجرة في البلدان الأخرى، أذكر أن وجهة نظـــري الحادة تجاه هذا الأمر أصبحت أكثر تسامحا حين رأيت ســـائق أجرة في المدينة يحاول أن يستغفل معتمرا! أو بعد معاناتي مـــن مزايدات السعوديين أصـــحاب ســـيارات الأجـــرة في مطـــار الرياض!السؤال الآخر: النماذج السيئة إلى أي مدى تتشابه بـــين شعوب الأرض؟

(19)

شجون!

(ما أعرفه أن الأرقام التي نكتب بها هي أرقامكم في الأصل) كانت هذه العبارة من مالك الفندق الإيطالي بمدينة فيرونا، كان قد طلب مني حين المغادرة وتسليم المفتاح أن أكتب له شيئا في سجل الزوار، سألته إن كان يود أن أكتب بالعربية أم الإنجليزية فأجاب بحرص وبلاتردد (العربية) ثم قال ماقال.

خرجت من الفندق وأنا أستحضر أثرنا الذي لم يعد موجودا، كانت صقلية وأخواتها الأوروبية حاضرة في ذهني، لكن حرصت على التناسي كيلا أفسد بقية يومي.

في هذه اللحظة الكتابية تذكرت جولة لي مع المرشد التركي في قصر العثمانيين (توب كابي سراي)، آثار السلاطين أثارت كثيرا من الشجن، ونحن في خضم الجولة والتأمل، كانت هناك مداخلة من مثقف عربي، وفي أثناء مداخلته وردت عبارة (استعمار العثمانيين للبلاد العربية) فما كان من المرشد إلا أن يعترض بأدب، ويبين أن العثمانيين أحبوا بلاد العرب وأخلصوا للإسلام و لم يكونوا مستعمرين، بغض النظر عن الرؤيتين لكني

أجد المسألة تتعلق بمعرفة إنجاز الآخر ومن ثم وصفه وصفا دقيقا.

في الأندلس التي لم أزرها حتى الآن قيل لي إنهم يصفون أجدادنا بالمستعمرين على الرغم مما أثبته التاريخ وعلى لسان المنصفين من الأوروبيين أنفسهم، دوما أسأل نفسي ماذا سأقول لو سمعت مرشدا أسبانيا يقول هذا أمامي؟

حدثني شخص قريب أن الحكومة هناك أوعزت للمرشدين بوصف الأندلسيين بالمستعمرين، ياله من تشويه متعمّد! أتذكر دوما مقولة لمؤرخ أوروبي وانطباعه تجاه هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء على مقربة من باريس، وكيف أن هذه الهزيمة أخرت دخول النور إلى أوروبا طويلا..

(20)

صورة مع الموناليسا!

كثير هم المسافرون وقليل من لم يجاوز السفر حدقات أعينهم!

في مجالس عديدة استمعت إلى انطباعات السفر، فلم تتجاوز الوصف الظاهري للمشاهد وفي أحيان كثيرة يكون الحديث على جهة التفاخر!

من المشاهد التي اختزنتها الذاكرة جولة في سوق الفواكه والخضار في كوالالمبور مع صديق عزيز يتقن اللغة الملايوية، كان السوق مزدحما ضيق الدروب، وكان أكثر البائعين من كبار السن، أما الفواكه والخضروات فقد أخذ التعارف بيننا بعض الوقت، ثقافة الأكل هناك تقوم على معرفة الفوائد الصحية وبطبيعة الحال ينبغي أن يغيب الحكم بناء على المظهر.

لا أذكر رغبة واتتني في كوالالمبور لزيارة برجيها العملاقين، اكتفيت بمشاهدتهما من الخارج وأنا أزاول رياضتي اليومية.

الأمر نفسه كان تجاه برج ايفل في باريس، لم ألبث أكثر من ربع ساعة عنده، لكني بقيت نصف يوم في تلة مومارت بين

الرسامين، أتأمل ملامح الشقاء والعبث في أعينهم، وأتلذذ بمحاولات بعضهم من غير المحترفين لإقناعي برسمي، كنت أتفحص رسوماتهم للجالسين بين أيديهم وقد وفق بعضهم وفشل البعض، الرسام حين يشعر بإخفاقه ترتعش أصابعه فيمسح بها ما أوتي له من ملامح إخفاق.

عجبا لمن يدخل متحفا كاللوفر في باريس وينهي جولته في ساعة أو ساعتين، حتى على مستوى اللوحات هناك من يزاحم على لوحة الموناليسا ويصورها بكاميرا عالية الدقة أو بجواله، ويمر على مئات غيرها دون أن يعبأ، أظن المسألة هنا تعود إلى التأثر بالذوق الجمعي أو اتباع السرب، وربما ليثبت للناس أنه رأى الموناليسا فحسب!!

(21)

تراث ضائع!

قد نسافر ونحن لم نبرح مدينتنا!

ذات فجر تنبهت للوحة جديدة تشير إلى قصر كعب بن الأشرف، قصر عمره أكثر من ألف وأربعمائة عام!

سافرت قبل أن أتوجه إليه نحو التاريخ واستحضرت مافاتني منه عبر شاشة الجوال، حين وصلت إلى منطقته لم أتبين موقعه أو الشارع الفرعي المؤدي إليه، اتبعت طريقة الصحيح/الخطأ وجربت كل الممكنات، وبعد محاولات وجدتني أمام مزرعة من النخل وبيوت لبعض العاملين فيها، أمام هذا كله لوحة أكلتها الشمس وصدئة تماما، ولا يكاد يظهر منها حرف سوى الشعار الحكومي، علمت حينها أنني بلغت مقصدي.

ترجلت من السيارة بخطى متعثرة من الأحجار التي تغطي المكان ورأيت أسوارا متهدمة وأطلالا تملؤها زجاجات المشروبات الغازية وحفاظات الأطفال!

كان صباحا حماسيا في ابتدائه محبطا في انتهائه، زرت قصورا ومساكن كثيرة في شرق آسيا وفي أوروبا، بعضها ليس مهما

تاريخيا، وبعضها قريب عهد وليس موغلا في التـــاريخ، لكـــن احتفاء أهلها بها اجتذب انتباه القاصي والداني.

حين زرت مسكن جولييت في فيرونا، تعجبت من تـــدني مستوى اهتمامهم به، السؤال أين نحن مقارنة بهذا المستوى!

في كوريا الجنوبية أعجبني احتفاؤهم بـــالبيوت التقليديـــة والقصور التاريخية، القصور هناك تحكي طبيعة حيـــاة الأغنيـــاء، والبيوت التي حولها ترسم ملامح الفلاحين والعمال، لم تكن مجرد أطلال للعبرة أو هضم المعلومة التاريخية، كانت حياة ماثلة أمامنا نعيش تفاصيلها!

للحديث بقايا

(22)

الشُرفة

حين أطلق هذه اللفظة معرّفة بالألف واللام فهذا يعني أنها الوحيدة في قلبي.

أتوقع أن علامتي التعجب والاستفهام بدأتا بالظهور الآن.. حسنا.. إنها شرفة جمعت ما لا يجتمع لدي في مكان واحد قريب جدا من وسادتي.. جمعت بياض الغيم والثلج وخضرة الدوح وزرقة الماء، جمعت نسيم الهواء وهمس الجبال وحنين العصافير وخرير النهر، جمعت صنوف البشر تحتها واختلاف الشمس والقمر في أبهى حلة فوقها، لم ألزم مسكني لساعات طويلة بقدر ما لزمته في ذاك الفندق النائي آخر الزقاق في مدينة انترلاكن السويسرية!

عادة أملّ من الفنادق ولا آوي إليها إلا للضرورة، لكن الضرورة هناك كانت أن أبقى وأتنفس.

في منتصف ليلة باردة اشتقت إليها مع علمي أن الظلام لن يسمح لي برؤية شيء لكنه الشغف، حين جلست على كرسيي وإذا بجاري الهولندي في الغرفة المجاورة يخرج إلى شرفته، ألقى

التحية فرددها بأحسن منها، وتجاذبنا أطراف الحديث، نسيت اسمه الآن، كان في الخمسينات من عمره كما بدا لي، وفي زيارة عمل للمدينة، الأوروبيون ليسو سواء، أقول هذا لأني سمعت من يطلق الصور النمطية حولهم ويعممها، والناس قد يختلفون في المدينة الواحدة، ما لفت انتباهي أنه كان يشكو من استعلاء الألمانيين ضمن حديثه، مع أن الهولنديين كما رأيت هم أشبه الناس بالألمان، أخبرته عن تجربتي السابقة في مطار فرانكفورت فلم يبد استغرابا أبدا.

الشرفات تتيح لنا من حديث النفس ما لم نتوقعه على مايبدو! ما أفكر فيه الآن: لِمَ ثقافة الشرفات في بيوتنا أصبحت لمجرد الزينة فحسب؟!

(23)

مع الكبار!

دوما أسأل نفسي ما سر الدموع التي ملأت عيني وأنا أودع اسطنبول من نافذة الطائرة؟

لم أبلغ العشرين حينها، ولكن الدموع لاتعرف الأعمار!

آثار العثمانيين كانت هي الأولى التي التقيت بها متأملا من بين آثار العالم، كانت الأشجان لاتتوقف وأنا برفقة الأسرة نتنقل بين معلم وآخر، كنت مشدوها بعظمة هذه الدولة الزائلة مندهشا من زوالها، وقفت صامتا أمام سيف محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية قريبا من سني، ومات شابا بعد أن أنجز مالم يوفق إليه الكبار، لمست حب النبي عليه أفضل الصلاة والسلام في احتفائهم بآثاره مع أني كنت ألحظ تشكيك الحاضرين بمصداقيتها، الشاب المدني جار النبي ماذا يُتوقع منه حينها؟

هل كل ماسبق هو سبب الدموع؟ لا أدري، لكن المدن التي تزرع فينا زهرة برية لا ننساها وتبقى داخلنا، حين عدت لاسطنبول وأنا في الثلاثين، كتبت قصيدة أرثي فيها العمر، أتذكر كتابتها وأنا أعاني من آلام مزمنة في الظهر حينها، وتيار

الهواء البارد ينساب إلي من نافذة أصررت على إبقائها مفتوحة على بحر مرمرة، حين بعثتها إلى أخي في المدينة بعد انتهائها مباشرة أرسل لي رسالة دافئة أذكر منها "لك في خالد بن الوليد عبرة.. أسلم في الأربعين وكان سيف الله المسلول".

لقد عدت لاسطنبول مرات عديدة بعدها، وكانت الذكريات تكبر داخلي أكثر فأكثر، وحبي كذلك!

آخر رحلة لها كانت مع أخي، لكننا لم نلبث بها سوى يوم واحد، وللحق أقول: إن المدن الريفية حولها جعلتها تبدو أكبر سنا، في ذلك اليوم لم يكن لدي الكثير لأحكي لها، تماما كما نجالس كبار السن لنستمع وننصت.. ونحكي قليلا.. قليلا فحسب!

(24)

الشِعر..

قد يكون الشعر عائقا كبيرا في السفر، بعض الشعراء يعلمون هذا وليس جميعهم، الشعر يسرقنا حين يهطل ولايدع مجالا لسحابة أخرى تشاركه الهطول!

أذكر حين تجهز أفراد الأسرة جميعا للخروج وأنا في انتظارهم متأملا دوحة ضخمة كانت أمام الشرفة في انترلاكن، اضطروا بعد انتهائهم إلى انتظاري، طبعا السبب أنني كنت في مهامسة وجدانية مع تلك الشجرة التي أفتقدها الآن.

في جولة بحرية بمدينة لوسيرن لم أنتبه لأشعة الشمس الحارقة رغم برودة الجو وأنا أتمتم بقصيدة (بحيرات الفتون)، حين أفقت تفقدت من حولي فوجدت زوجتي وابني ينتظرانني في الداخل.

بعض القصائد كالأنثى الفاتنة، حين تهديك صورة غير مكتملة تعيش مع تفاصيلها القليلة لتعيش حياة غزيرة، في تلة (مومارت) وأنا على وشك المغادرة مع أخي، اعترضني رسام يدخن بشراهة، كان الشيب يغطي كل ملامحه، وعرض علي أن يرسمني بثقة على الرغم من هطول المطر، كيف لشاعر أن يرفض حينها؟

طلب مني ألا أتحرك وأبقى ثابتا، لم يكن في حاجة لطلبه هذا، فقد كانت القصيدة ملكة الموقف وكنت تحت إمرتها، وكانت قريبة إلى نفسي (بين رسام وشاعر).

إذا تجاوزت قصيدة(اسطنبول) وملابساتها التي سلفت، أجدني أمام قصيدة من نوع خاص، قصيدة هي آخر ما كتبني حتى هذه اللحظة، هي قصيدة (البندقية)، المدينة في هذه القصيدة كتبتها بعد عودتي لكن بعد أن ألقت بكل حروفها داخلي، المدينة حينها لم تكن وحدها، كان حبي ممسكا بيدها ويظلها عن المطر بيده الأخرى..

ويبقى الشعر ما دام السفر..

(25)

أين نحن؟

أكثر ما يشجيني في السفر، ممارسات البشر!

البسمة الدائمة في وجوه الكوريين أذهلتني، أستطيع أن أسميه الشعب الباسم بكل ثقة، في أوروبا وجدت البسمة أيضا، لكنها بسمة (إيتيكيت) أو ذوق، وهذا النوع من البسمات يشعرنا باحترام الآخر لنا وقبوله للاختلاف ولو بأيسر أشكاله، لكن البسمة التي أتحدث عنها بسمة الرضا، بسمة تصدر من الأعماق بلاتردد. ما الذي لا يجعلنا شعبا باسما؟ نحن لانبتسم بعمق في وجوه من نسافر إليهم حتى في سفرنا!

أذكر في إحدى فنادق سويسرا حين كنت أنتظر دوري للحديث مع الاستقبال لتمديد فترة إقامتي، وكان أمامي مباشرة شاب من وطني، كان جلفا جدا في تعامله بلا سبب سوى أنه يظن المال مسوغا لذلك! لاشعوريا انسحبت وآثرت أن أعود في وقت آخر، لأنني لا أريد أن أتحمل تركة سيئة خلّفها لي!

في قطارات سويسرا كان عدد كبير من المسافرين بين المحطات من كبار السن، أعني من أعمارهم فوق الستين، يمشون

ويسافرون ويتنقلون ويستمتعون بما حولهم، كبار السن لدينا يلزمون بيوتهم أو نحن نلزمهم بها!

في ساعات الصباح الأولى مشهد الذاهبين إلى أعمالهم سيرا على الأقدام يذهلني، من شتى الأطياف والمستويات، منهم من يقرأ جريدة أثناء سيره، ومنهم من يستمع إلى برنامجه المفضل وسماعاته لاتفارقه، ومنهم من يرافقه صديق أو زميل أو شريك، لم أرصفتنا مهجورة في كل ساعات اليوم؟!

في هولندا تكاد تكون الدراجة أهم من السيارة في اعتماد الناس عليها وسيلة نقل، الجميل في الدراجة أن مايميزها عن أي وسيلة نقل أخرى كونها وسيلة رياضة مهمة أيضا!

(26)

السائل الأسود!

في متحف الشمع في برشلونة، كانت هناك مجسمات لمشاهير العالم من مختلف الثقافات، كان هتلر واقفا بثباته المعروف، وانشتاين بنظرته التأملية العميقة وابتسامته المريحة، وغيرهم كثير ممن لا أذكرهم الآن، فجأة وقفت مشدوها أمام رمز مجسم أمامي، كان أول صورة نمطية تصدمني في ذاك العمر الفتي، شاهدت برميلا من الزيت ملطخا ببقع هنا وهناك، وعليه شماغ أحمر وعقال!

ما هذا؟ هل هذه فكرتهم عن العرب، عن الخليجيين خصوصا؟ لم يغب المشهد عن مخيلتي حتى الآن. في كل العالم حين أعرّف بنفسي ووطني، يكون الانطباع التلقائي (أووووه أهل البترول)! البترول هذا الداكن الذي صبغ ألواننا وأخفاها عن عيون الآخرين حتى لم يعودوا قادرين على رؤية شيء آخر!

مؤخرا.. واجهت أكثر من شخص لايعرف أين السعودية أو الرياض وبالطبع لايعرف المدينة المنورة لكونه غير مسلم،

أجدني من باب تقريب المسألة أذكر له دبـــي فيبتسم بإعجاب، سؤالي الآن: هل دبـــي ذات بترول!

بالطبع معرفة الآخر بنا ليست مقياسا لمـــدى إنجازنـــا، في أمريكا صدمت بتدني ثقافة الشعب هناك حول ما يجري في العالم فضلا عن معرفته بوطني، ناقشت مع صديق أمريكـــي قضـــية فلسطين فكان كل ما قاله أن سألني: أصحيح أنكم واليهود أبناء عمومة؟ الأمريكي موجه تماما من خلال الإعلام ومسيطَر عليه، وهمه الأكبر مناقشة الضرائب المفروضة عليه وكيف يسددها آخر الشهر!

حسنا.. بعد هذا كله، أردت أن أقول متسائلا: ماذا نريـــد ليعرف عنا هؤلاء غير البترول؟! ولم لا يعرفون عنا شيئا غير هذا السائل الأسود؟

(27)

طفولة بلا تصريح!

الحصول على تصريح السفر خطوة مهمة للزوجة أو الابن والابنة دون الثامنة عشرة للسفر خارج البلاد، طبعا الذي يعطي الإذن هو رب الأسرة (الزوج/الأب).

أذكر أني في رحلة عمل إلى لبنان وبتوصية من والدي رحمه الله، فوجئت بعدم وجود التصريح! كنت دون العمر النظـــامي، اتجهت إلى مدير الجوازات في المطار فلم أجد تعاملا أصلا فضلا عن حسن التعامل، النتيجة أن الرحلة أقلعت وحقيبة السفر تئن في يدي.

التصريح هذه الأيام صار ينجز إلكترونيا عن طريق (ابشر)، يالها من مفارقة!

ما أكثر التصاريح التي رافقتني، لم تكن سوى ورق كئيب يرمى في سلة المهملات بمجرد تجاوز تلك المحطة البائسة!

حين أصبحت سني نظامية، لم يختلف شيء ســـوى أني لا أحمل تصريحا، بينما الهم القابع داخلي لم يـــتغير وهـــو العمـــل وإنجازه. يالها من معاناة حين تكون أكبر من الـــرقم المثبـــت في

سجلاتك الرسمية! السؤال هنا: هل السفر أسهم في تسارع هذا الكبَر؟

يظل السفر عجيبا في تناقضاته، فهو يطلق الطفل الحبيس المقيد داخلنا، وفي الوقت ذاته يصقلنا ويزيد من كفاءتنا في تلقي صفعات الحياة والتعامل معها بثبات.

إن رحلة واحدة غير مباشرة بحيث تضطر إلى تبديل الطائرة والانتظار لساعات بين الرحلتين، أو الركض سريعا للحاق بالرحلة الثانية المواصِلة، أقول: إن رحلة كهذه كفيلة جدا بتعليم عشرة دروس معا في كبسولة مضغوطة.

في المقابل، قد تتفاجأ بأنك شاهدت ثلاثة أفلام متتابعة على متن الطائرة، وأزعجتَ من بجوارك لضحكك اللامنتهي، كطفل نسي كل التعب!

(28)

بعيدا عن النجوم!

السفر اختبار للمعرفة، بمعنى أنه يعرينا أمام أنفسنا لنتجـــرد من كل أنواع الزينة المجتلبة فلايبقى حينئذ إلا مـــافي الفكـــر... الفكر وحده.

كثير من أفكارنا مقولبة جاهزة حول السفر، منها أن فنادق الخمس نجوم توفر راحة لاتوجد بغيرها، وهي فكـــرة خاطئـــة تماما.

الأمر يتعلق أولا وآخرا بما نحتاجه في الفندق، ســـكنت في فندق في دبـــي ليس من فئة الخمس نجوم لأنه لايحتـــوي علـــى مرقص ولابار ولايقدم مشروبات كحولية فهل هذا مأخـــذ! في إيطاليا لم أسكن في فنادق مصنفة أصلا وكانت تجربة فريدة ممتعة حقا، أحدها كان مملوكا لسيدة أعمال ستينية، كـــان مـــدخل الفندق هو معرض الملابس الذي تديره مع أختها وابنتها، أمـــا المبنى فهو سكن قديم جُدد بعناية، وما أجمل عبق القديم الـــذي يعتنى به! تحرص هذه السيدة على تقديم الإفطار بنفسها، لـــيس هناك قائمة، لكنها ذكية وتعلم من ملامح العربـــي أنه لا يأكل

لحم الخنـــزير ولا يشرب الخمر، لم أتناول إفطارا شهيا كـــذلك الصباح، كانت كريمة جدا والابتسامة لا تفارقها!

أما الفندق الآخر فيقع وسط مزرعة ضخمة تضم مـــزارع زيتون وعنب، كان ملكا لعائلة أوكلت إدارتَه لأحد أعضائها مع زوجته، كان يسأل وقت إجراءات الدخول: ماذا تحب للإفطار؟ أجبته: الإفطار العادي مع أومليت، فنظر إلى زوجتـــه مبتســـما وقال: لانقدم البيض، فقلت: لابأس!

في الصباح الباكر كان يرتب المائدة ويجهز الأطباق ويؤكد أن جميع الكعكات من صنع زوجته. الجميل في الفندقين أنهمـــا بعيدان كل البعد عن الأجواء الرسمية والحس الإنساني فيهما كان حاضرا بقوة، لا أشك أنني سأعود إليهما مع صغاري يوما ما.

وللحديث بقية...

(29)

قطار الزمن وقطارات أُخر!

السفر بالقطار أو التنقل به ثقافة غائبة أو مشـــوهة عنـــدنا للأسف! حوادث متكررة وتأخر غير مبرر وبيئة غير مناسبة.

النموذج الأعلى للقطارات الذي ارتحت إليه كثيرا و لم أجد حتى الآن مايقاربه هو القطارات السويسرية، هؤلاء السويسريون لم يشتهروا بصنع الساعات فحسب بل صناعة الوقت واحترامه أيضا! الرحلات المجدولة لديهم على مدى شهور مقبلة يمكنك أن تثق بها تمام الثقة، لم أصادف رحلة تأخرت عن وقتها وفي المقابل فاتتني رحلات تأخرتُ عنها دقيقتين أو ثلاث، مـــع شـــعوري بالإحباط إلا أن احترامي لدقتهم يطغى على أي شعور آخر، قد يقال إن هذا ديدن القطارات الأوروبيـــة جميعـــا، حســـنا... اضطررت أنا وأخي في ألمانيا لإهدار كثير من الوقت نتيجة لإلغاء رحلات أو تأخرها! إضافة إلى عدم أريحية المحطات هناك.

في سويسرا معظم الرحلات تتكرر كل نصـــف ســـاعة أو ساعة، وحول المحطات حياة متكاملة لن تجد نفسك في حـــيرة لخوضها.

السفر في قطارات سويسرا جعلني أرى الدهشة في عيون صغاري وهم يشاهدون الجبال الخضراء والبيضاء والشلالات والسيول والأنهار، جميل أن يكون القطار ليس وسيلة سفر فحسب، حين سافرت مع زوجتي من باريس إلى نيس مرورا بمدينة كان، لم تتح لنا الفرصة لمشاهدة أي منظر من تلك النوافذ الضيقة العالية المخصصة للهواء فقط!

قطارات سويسرا أتاحت الكثير من خلال حوائطها الزجاجية الكاملة، يسعدني أننا انتبهنا أخيرا إلى أهمية القطارات لكن يسعدني أكثر أن نتعلم ممن سبقونا في هذا المجال خاصة سويسرا.

للحديث بقية...

(30)

مع المرأة!

هل نتحاشى المرأة في السفر فلا ننظر إليها أبدا؟

تعاملت مع المرأة إنسانا لاغير ومن هذه الزاوية سأتحدث هنا..

حين أسافر في فصول غير الشتاء تكون المرأة مبتذلة في لباسها، طبعا هذا نتيجة لاختلاف الثقافات، في كوريا من المعيب أن يكون الصدر مكشوفا ولو جزءا يسيرا، بينما لايخدش الحياء أن ترتدي (شورتا) إلى منتصف الفخذ! أما في الغرب فالمرأة حرة تماما فيما تلبس وقد ظهر هذا جليا أمامي، في أمريكا دعيت إلى وليمة عشاء، كان المضيف صديقا كريما محبا للعرب، تمنيت يومها لو كانت زوجته، التي مازلت أحترمها، أكثر احتشاما في لباسها.

من هنا كان سبب آخر لكي أحب الشتاء، في الشتاء كل البشر يهتمون بلباسهم على اختلاف ثقافاتهم، الأناقة والألوان تتحدث في الشتاء، حتى النوايا السيئة تحتشم في الشتاء.

في المقابل أعجب من امرأة خليجية تحرص على التزلج بعباءتها وبرقعها، المسألة ليست تدينا بدليل ضحكاتها المسهبة مع

الآخرين، ذات مساء التقيت بسويسريين مشدوهين من البرقـــع المعدني الذي تحرص عليه بعض الخليجيات، جميل أن نقدم ثقافتنا لكن بدون إثارة!

كنت في القطار يوما، بعيدا عن مقعد زوجتي وأبنائي نظرا للزحام الشديد، وكان بجواري أمريكية سائحة مثلي، حين توقفنا في إحدى المحطات خرج شاب خليجي مع زوجته المنقبة، فعلقت متحدثة إلى صديقها وهي لاتعلم بعـــربيتي، "لا أدري كيـــف يستطعن التنفس؟!" وقتها لم أشعر بالحرج ولم أوافقهـــا فيمـــا ذهبت إليه، فالموقف طبيعي ولا إشكال في اختلاف الثقافة، أما التنفس فهو ينبع من الرضا عن الذات لاغير.

(31)

من أسرار الطفولة!

من الغريب حقا أن ذكريات طفولتي واستقبالها لخبر السفر ضاع معظمها، لكنني محظوظ أنني أستعيدها في وجوه وانطباعات أولادي.

من المعتاد أن أخيرهم في تحديد وجهة السفر ضمن خيارات محددة مسبقا، أستمتع حينها باختلافات وجهات نظرهم، وكيف يحاول كل منهم إقناع الآخر بوجاهة وجهته، وحتى يحين موعد السفر أرتال من الأسئلة الفضولية تجتاحني، ماذا سنفعل هناك؟ هل سننام مبكرا كما نفعل هنا؟ كم من المدة سنمضيها؟ هل يوجد ثلج؟ هل عندك عمل أم نكون برفقتك طيلة الوقت؟ وبعضهم يتوجه إلى الانترنت لاستكشاف المعالم مسبقا، حتى إني لأفاجأ أحيانا بدقة معلوماته، عجبا لهذا الانترنت! فقد جعل الآباء في موقف يتطلب التزود المعرفي المستمر كيلا يبدون أغبياء أو محدودي الثقافة أمام صغارهم وأمام أنفسهم قبل أي شيء.

أحيانا يكون الطفل الصغير ضحية السفر، في سفرتين اضطررت بقرار مشترك مع زوجتي أن أترك لينة ثم يزيد، كان

القرار حكيما و لم أندم عليه، ولكن أستطيع القول أن متعة اليوم كاملة قد تزول حين أعود منهكا إلى الفندق وأشتاق إلى أنفاس الطفل الصغير تغمر أنفاسي.

السفر مع الأطفال لايخلو من تضحية، ويحتاج إلى حكمة وكثير من التغاضي.

من أجمل مايهبوننا أطفالنا في السفر ضحكاتهم الصادقة العميقة، واندهاشاتهم التي تُلبِس الحياةَ أهميتها المتجددة، وقبلاتهم المفعمة بالعرفان بالجميل، يحتفظ صغاري بصورهم في كل الرحلات، لاشعوريا أسأل أحدهم إن كان يتذكر رحلة ما فأسعد أن الذكرى حية و لم تتلاش كما حصل مع الأب!

(32)

هل المكان يشعر؟

كثيرا ما كنت أخاطب المكان شاعرا، لكن بعيدا عن مجازات الشعر.. هل للمكان قلب ينبض فيبث مافيه من أحاسيس داخل مرتاديه؟

في مدينة فيرونا الإيطالية، في أحد أحيائها العتيقة ترقد جولييت التي انتحرت من أجل حبيبها روميو اعتقادا منها أن لا حياة بعده!

وغير بعيد عن مرقدها يقبع منزلها الذي احتضن قلبها النابض كقبرها الذي يحتضن جسدها.

حسنا سأعود لتساؤلي.. كانت الكآبة حاضرة بكل تفاصيلها في المكانين، عند قبرها اعتصرني الحزن بقوة فقلت في نفسي: إن هذا طبيعي لأنني جديد هنا وللقاء الأول مفعوله، لكن حين رأيت حراس المكان تعلو وجوهَهم القتامة ازداد وقع السؤال في قلبي!

في منزلها كان البؤس فاردا جناحيه هناك، أكاد أجزم أن كل حراس المنزل على وشك البكاء! هل هو المكان الذي

شهد الحرمان والنهاية غير السعيدة؟ أم هي روح جولييت الـــتي ترى أنها لم توصل رسالتها لكل عاشقين؟

أحببت كثيرا من الأماكن التي تسألني بشـــغف.. بعضـــها ارتسم أمامي بملامح من أحببت، البندقية كانت مكانا مفعمـــا بالشجن، لم تكتف بالحديث ولكنها تشبهت بملامـــح حبيـــبتي فعلا، في عطائها وجمالها وعنادها وقوتها وعمقها!

الأماكن التي تتنفس داخلنا جديرة بالوقوف عندها مليـــا، لكن لا أدري إن كانت جديرة بالعودة إليها مجددا!

(33)

خطوط وحظوظ!

حياتنا في السماء سفر أيضا، بل هي مقدمات السفر ومقبّلاته، حين أستعرض خطوط السفر التي أثْرتني بالتعامل معها من خلال انطباع جيد أو سيء، أجدني حينئذ أمام كم هائل من الذكريات، تخيّل أن تلغى رحلة عودتك إلى وطنك ليلة عيد الأضحى دون أن يُتصل بك! كنت حريصا على هذا الموعد لكيلا تحزن أمي رحمها الله، اضطررت أن أستبدل الخطوط بأخرى وأدفع ضعف القيمة لأعود من اسطنبول إلى جدة ومنها بالسيارة إلى المدينة، مما لا أنساه أن السائق الذي قاد بنا السيارة إلى المدينة باغته النعاس وكان على وشك أن يصطدم بشاحنة أمامه لولا لطف الله ثم أني تدخلت بقوة! ما أريد قوله أن خطأ جهة ما قد يجر إلى أخطاء أخرى لاداعي لها!

من التجارب السيئة فقداني لحقائب العائلة مرتين مع إحدى أشهر الخطوط الأمريكية، تخيل أن تضطر إلى شراء ملابس مرتين، أو أن تغسل ملابسك التي ترتديها وتبقى شبه عار في غرفتك تشبه ابنك الصغير فيما يرتديه!

أتذكر ذلك المضيف العملاق وأنا على متن إحدى الرحلات، لم يمر بجوار مقعدي مرة واحدة دون أن يوجه لي وكزة غير مقصودة طبعا!

لا أدري لم لم أنس المضيف الفرنسي الذي فاجأني بصرامة لم يكن لها داعٍ، فقد شغلت جهازي الجوال بعد أن هبطت الطائرة على مطار جدة فما إن رآني حتى رفع الصوت ووجه لي أمرا مباشرا بإغلاق الجوال (الآن)!

أما أعجب العجب فهو أن تؤخر رحلتك، ولاتشعر الشركة المالكة للخطوط بأية أسف أو إحراج، لأنها عوضتك بغرفة فندقية تقضي بها ليلتك!

حين أقرأ سطوري هذه الآن، أعلم يقينا أن السفر حياة، نعم حياة، لأننا مهما تعرضنا فيه إلى متاعب، لا نشبع من الاستزادة منه، كالحياة تماما!

(34)

خطوط وحظوظ أيضا!

تحدثت عن الذكريات السلبية مع خطوط الطيران فماذا عن الإيجابية؟

في رحلتي إلى كوريا ذات التسع ساعات ونيف، كنت مستمتعا بعدد من الأفلام السينمائية، منذ صغري – وما زلت – مغرم بالسينما، موقن بأن الفيلم الذي يحترم فكر وعقل المُشاهد يعْدل قراءة رواية فنية مُحكمة.

إذن فالأفلام خير رفيق في السفر، كثيرا ما صادفت جارا لي في المقعد بجانبي يشاهد ما اخترته لنفسي ويترك مشاهدة اختياره هو! مايملكه الآخرون له طعم خاص حسب ما أظن، مع أن الأفلام متاحة للجميع!

أعتقد أن وجبات الخطوط لاتسلم من التقصير غالبا، لكنني لا أنسى بعض الخطوط الخليجية التي امتازت بإخلاص فريد فيما تقدم من وجبات!

بعض الخطوط تمتلك طائرات على مستوى عال من الخدمات ولا تشعر بجشع يجتاحها، تصور أن يتاح لك شحن

جوالك وجهازك المحمول بكل سهولة! الجشع الذي أشرت إليه له مؤشرات عديدة، منها: مدى التباعد بين صفوف المقاعد، أخبرني رجل حكيم ذات مرة أن الحجز على الدرجة الأفق أو الأولى على إحدى الخطوط يعتبر تبذيرا فعلا، لأن الدرجة السياحية مقاعدها توازي مقاعد الأفق في خطوط بلادي!

يبقى أن البشاشة وحسن الاستقبال والصبر على الأطفال محكات حقيقية للحكم على جودة خطوط ما وكفاءة مضيفيها، لايزال أولادي يتذكرون بعض الرحلات وحين يسردون تفاصيلها يبدأون بالطائرة وملابساتها، في الرحلة الأخيرة مع العائلة إلى الدمام، كان يزيد يسألني بشغف: هل الطائرة هي نفسها التي أقلتنا إلى كوريا آخر مرة؟! كنت أقول في نفسي: شتان ياولدي!

(35)

من جماليات الفقر!

أعترف أنني لا أملك خيارا، حين أجد فنانا أو فنانين يقدمون إبداعا معينا للجمهور في الطرقات والشوارع العامة، أقف متجمدا فجأة، حتى إن زوجتي وأولادي أصبحوا يعرفون عني ذلك تماما فلا يتفاجؤون ويبحثون عن أقرب مقعد للجلوس ريثما أستأنف حركتي وأخرج من حالة الانجذاب!

أحب الإبداع وأحب الجرأة التي يقدم بها هؤلاء إبداعهم، هم فقراء ماديا لايجدون ما يأكلون غالبا لكنهم أغنياء بما يملكون من مواهب!

لا أنسى أحفاد الهنود الحمر في انترلاكن السويسرية وموسيقاهم التي سحرت الأوروبيين وأنا معهم، ولا أنسى الغجر الذين صادفتهم في برشلونة وباريس واسطنبول، كانت وجوههم تتغير فهم مختلفون طبعا، ولكن الثقافة لم تتغير، التمرد والخفة والفكاهة والجوع، ياله من مزيج، وما أشد إيلام الجوع!

في كوريا ذات صباح.. خرجت لجلب طعام الإفطار لأطفالي من محل الكعك آخر الزقاق، وجدت شابا أوروبيا تبدو

عليه وعثاء السفر يعزف نغما كلاسيكيا أتذكره من أيام الطفولة، توقفت عنده متأملا وأخرجت مبلغا من المال وضعته في قبعته المغبرة الملقاة على الأرض، أكملت طريقي بعدها، وحين عدت إلى السكن علمت أني تأخرت كثيرا!

على مدى أيام بعدها صادفت ذاك الشاب مع أطفالي مرتين أو ثلاثا، إلى الآن أتذكر ابتسامته العميقة وانحناءة رأسه تحية لي أثناء عزفه!

من المشاهد التي لا أنساها ذلك الكهل الستيني في إحدى حدائق أدنبرة بأسكتلندا، كان واقفا على جانب الطريق ينشد قصائد إنجليزية كلاسيكية بطريقة ساحرة، لم يكن يفعل هذا من أجل المال، لقد تجسد الفن عظيما في إحساس ذلك الرجل المهيب رث الملابس!

(36)

من يدري!

في السفر.. لاتستطيع أن تتنبأ بالمواقف التي ستواجهها، أنت تخرج من غرفتك في الفندق متهيئا لكل شيء جديد، فهذه هي روح السفر الحقيقية.

في برشلونة وبحكم البرنامج الأكاديمي الذي التزمت به، لم يكن متاحا لي أن أسافر إلى مدن أخرى حولها، كنت أكرر زيارة بعض الأماكن، ولكن لم تكن التجارب تتكرر.

ذات مساء وفي أحد المطاعم، حين توجهت إلى دورة المياه، وجدت البابين المتاحين مقفلين، فانتظرت.

بطبيعة الحال؛ لم أكن مرتاحا ولا سعيدا، وأنا واقف أنتظر.. فوجئت بطفل لكنته إيرلندية حينذاك يسألني بوجه باسم بريء: أتحب الألعاب السحرية؟

أجبته لا شعوريا: نعم.

مازلت أرى أن من لايعرف كيف يحاور الطفل فقد حُرم الشيء الكثير، المسألة ليست عطفا وإنسانية فحسب، بل هي تتطلب قدرا لابأس به من الذكاء وخفة الظل، فالأطفال لا

يجاملون، الآطفال مرآة للنفوس تساعدها لرؤية الثغـــرات الـــتي تتخللها!

أعود للقصة: بعد أن انتهينا من لعبته المكررة المدهشة ذات الكروت، أهديته مبلغا بسيطا فقال بلهجته الطفولية الرائعة الـــتي تذكرني بابنتي لجين (واااااو).. وذهب مسرعا يحدث أمه!

حسنا..

لم تكن سوى لعبة تافهة لكنها قاربت بين ثقافتين متناحرتين وجيلين متباعدين وذكّرت أبا بابنته، ما أعلمه يقينا أن الأطفـــال لاينسون المواقف غير العادية، سيتذكر هذا الطفل رجلا بملامح غير أوروبية شُده بمهارته وكافأه مبتسما، لعله يستصحب هـــذه الذكرى حين يكون يوما ما في موطن مسؤولية ويتخـــذ قـــرارا سياسيا.. من يدري!

(37)

عودة إلى الأكاديمية!

في برشلونة أيضا، شاركت ببحث في مؤتمر تنظمه مؤسسة (آيجاس)، كنت أعلم أنه غير تخصصي ولكن حبي للتجريب دفعني للمشاركة. لفت انتباهي أن القوم مؤتمراتهم بسيطة لايتكلفون كما نفعل نحن في جامعاتنا، يكتفون ببوفيه إفطار بسيط جدا بينما البرنامج العلمي يمتد من الثامنة والنصف صباحا حتى السادسة مساء موزعا على أكثر من قاعة ولمدة يومين يفصل بينهما يومان ثقافيان لزيارة معالم خارج المدينة.

مما لم يعجبني عدم وجود ترجمة فورية، ذلك أن اللغات التي يشارك بها الباحثون متنوعة وليست مقصورة على الإنجليزية فحسب.

حين قدمت موجزا لبحثي كان من ضمن الحضور باحثات عربيات، من المضحك أن بعض الباحثات من وطني انسحبن مباشرة بمجرد التعريف بنفسي، لم يتصورن أن يراهن رجل من وطنهن، تأكدت بعدها أن تغطية الوجه تقليد وليس من الدين عند الكثير.

مما لم أخْفِ إعجابي به.. أسلوب الباحثة اللبنانية التي قدمت بحثها بعدي مباشرة، حيث كانت صارمة وطلبت بوضوح وصراحة عدم الانشغال بأي أمر سوى موضوع البحث. ما يحزن أن الأحاديث الجانبية كانت عربية دائما!

في يومَي المؤتمر، كنت أتأمل الباحثين وطرائق عروضهم، البعض كان يقرأ من شاشة العرض والبعض لم يصمم العرض إلا من أجل الحاضرين فحسب وفرق كبير بينهما!

مبنى الجامعة كان بسيطا، بعيدا عن كل تكلف، تذكرت آنئذ تجربتي في زيارة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، حيث لم يكن للجودة هناك سوى مكتب إشرافي صغير، ذلك أن ثقافة الجودة متأصلة فلاتحتاج إلى وكالة وعمادة ووكلاء جودة في كل كلية وعمادة مساندة، ليتنا نهتم بتأصيل ثقافتنا من جديد، ولاشك أن السفر خير معين.

(38)

خلوة!

لم أتخيل يوما أن أقف على نهاية ميناء بحري، ليس أمـــامي سوى الماء وبقية من أرض خشبية أقف عليها. حسنا ليس هنا ما يدعو لعدم التخيل حتى الآن!

فجأة، رأيتني أتمدد بمحاذاة البحر مادًا يدي العاريه التي طالما صافحت أحباءها واحتضنتهم تجاه البحر، وفي غمرة هذا الشعور وبينما الأنامل كانت ترتعش رعشة خفيفة اختارت الـــروح أن تودعني.

نعم أغمضت العينين في سلام وطمأنينة و لم أعبأ بمن حولي من السيّاح والزائرين وعشاق لحظة الغروب، كانـــت لحظـــات استثنائيه لا تنسى أبدا.

حينما عادت الروح إلي مجددا فتحت عيني فوجدتني في ليل أقبل دون علمي، وخلفي زوجان اقتعدا كرسيا خشبيا يتهامسان بحب، وبجانبـــي شاب تدلت رجلاه كأرجوحة تداعب أمواج البحر المظلم.

أسال نفسي الآن أين اختارت الـــروح أن تمضـــي حـــين

تركتني؟ لعلها اختارت أمنية طارت لتعانقها.

أجمل مافي هذا المشهد هو بساطة الحدث وتلقائيته؛ أيقنت أن كثيرا من أحداث السفر نفسدها بالتخطيط الدقيق وبالتحسب لكل ماحولنا من أشخاص وأفكار ومعتقدات واعتبارات.

في السفر، جرب أن تكون أنت لك وحدك وبرفقة روح تحبها وإن لم تكن معك حقيقة، وسترى أن السفر قد حفر في ذاكرتك نقشا جميلا جدا لايطمسه شيء من عوادي الزمن.

بقي أن أقول إن هذا الحدث الطفل الوديع ولد من رحم برشلونة حفيدة الذكريات الأندلسية الجميلة.

(39)

البياض المبارك!

لكبار السن مشاهدات كثيرة تعاود زيارة الذكريات من حين لآخر.. محال أن تخلو أيام السفر من تجربةٍ أحد أطرافها من ذوي الشعر الأبيض.

في حيرة أنا الآن من أين أبدأ؟

هل أبدأ بالرجل العجوز الذي اصطحب حفيده الذي لايتجاوز الخمس سنوات في رحلة بحرية؟ كنت مشدوها بمدى الانسجام بينهما.. لقد تعددت احتمالات هذا الانسجام في ذهني وقتها بين أن يكون الجد متكلفا بمهارة وبين أن يكون الطفل ذا وعي أكبر بكثير من سنه أو أن يكون الجد مشتاقا لماضيه حد الشغف! وفي كل الأحوال كان المنظر مدهشا حقا.

إذا لم يكن هذا الجد بداية الذكريات فهل أبدأ بالسائق التركي الذي كان يرافقني في تنقلاتي بين سبانجة وأخواتها شمال اسطنبول؛ ذاك الرجل كان ينضح بالحكمة؛ وبالمناسبة ليس لزاما أن تقترن الحكمة بكبر السن؛ وكم من طاعن في السن ابتعد عن

النور مع مرور الأيام وتراكم السنين؛ أشعر بالأسى لأني لا أذكر اسمه الآن، هل هذا ينم عن عدم وفاء مني؟

على أية حال مازلت أذكر وداعه الحار حين أوصلني وأخي لاسطنبول واحتضنني بقوة.

من المشاهد الحاضرة في ذهني منظر الجدين الشرق آسيويين في القطار من باريس إلى نيس، برفقتهما حفيدان جميلان، ما لفت انتباهي إخراج الجدة لزجاجة صغيرة من النبيذ ومقاسمتها لزوجها إياها طوال الرحلة حتى خلدا إلى الراحة معا والحفيدان في حديث لاينقطع، وقتها سألت نفسي عن معايير الصواب والخطأ، كيف أنها لايمكن أن تكون ذات قالب واحد لكل الناس!

(40)

الحمَام..

هذا الطير الذي كثيرا ما ألهم الشعراء في أحزانهم؛ من النادر أن يخلو منه السفر!

الحديث عن الحمام يجرني للحديث عن ميادينه العديدة التي مررت بها واقتعدت كرسيا فارغا فيها.

برشلونة لندن باريس مانشستر البندقيـــة ميلانـــو فيرونـــا نيويورك وتطول القائمة كثيرا.

ومع أن جنس الحمام واحد لايتغير إلا أن سلوكياته تختلف؛ الحمام هنا ألوف لا يخاف من البشر؛ من المفارقات أن الحمـــام يعيش في بلد حرام كالمدينة ومكة ولاينعم بطمأنينة كالتي يـــنعم بها الحمام الأوروبـــي مثلا!

في آخر منظر للحمام رأيت ذكرا يحاول جذب أنثى إليه ولا يألو جهدا في ذلك؛ ما لفت انتباهي أنها لم تسمح له بالاقتراب حتى توارت خلف جذع شجرة بعيدا عن الناس؛ ليت بعـــض البشر بحياء الحمام!

ما أود قوله ختاما: إن هذا الطير يحيرني فعلا؛ فهو مـــزعج

حين يضايقنا في نوافذ بيوتنا؛ ويلقي بفضلاته على كل مكـــان دون اكتراث، لكنه في الغربة يعني لنا الكثير ويهيج في نفوســـنا الحنين، هل التغير في سلوكه هو أم أن المغترب تتغير انطباعاتـــه ويتسامح كثيرا؟!

ذات صباح تخيلت تبادل الأدوار بيني وبين الحمام، فتمتمت بهذه المقطوعة:

لو كان لي صوت الحمامِ لربما كفَّ الهديل عن البكاءْ
لو كان لي من ريشهِ لم يجرؤ البرد الجَسورُ على اللقاءْ
لو كان لي أفق السماءِ..
لربما أيقنتُ أنكِ لي السماءْ!

(41)

كتاب ليس كالكتب
أم قارئ ليس كالقراء؟

للمكتبات ذكريات جميلة دوما، لأن صدرها رحب في كل الحالات، ولا ينبض إلا بالحكمة والنور، المكتبات خارج بلادي لها طعم خاص، اكتسب حلاوته بسبب سياسة التشدد والمنع لدينا لكتب لاأدري إلى الآن سبب منعها!

للندن ذكرى فريدة هي والكتب العربية الممنوعة التي لم أعتد على رؤيتها في مكتباتنا، لكن لا أريد أن يُظن أن هذا سبب فرادة المكتبات في الخارج.

المكتبات هناك تحفز على القراءة من عدة جوانب. لفت نظري سبورة كتب عليها بالطباشير موعد صدور الكتب الحديثة خلال الشهرين القادمين، هل هذه الوسيلة مفعلة في مكتباتنا؟

المكتبات تحتوي على مقاهٍ داخلية يمكن الزبائن أن يقرأوا فيها الكتب بكل أريحية، ولكي أكون منصفا فقد رأيت ذلك في بعض المكتبات المحلية لكن هناك فرق بين أن يكون المقهى بين الكتب وبين أن يكون عند بوابة الخروج بجوار كاونتر المحاسبة!

في آخر مكتبة زرتها بمانشستر تأملت تصنيفات الكتب فوجدت العلم يتقاسم مع الإبداع الفني، بينما تطغى على مكتباتنا الإصدارات العلمية. كما لحظت أن السيرة الذاتية فن رائج جدا في الغرب، ولكنه لايزال يخطو على استحياء عندنا.

الأمر الأخير أن الأطفال لهم مكانة عالية في الثقافة الغربية، حتى تكاد كتب الطفل تستأثر بثلث المكتبة، وكم نحن متخاذلون في هذا الجانب! كتب الطفل لاتمتاز بالكثرة والتنوع فحسب، بل بالكيف أيضا، وبجودة الإخراج وإتقانه، نوع الورق ووزن الكتاب وألوانه وملمسه، كل هذا من حيثيات تميز كتب الطفل عندهم. لحظت أن أولادي كانوا متحمسين لاقتناء كتب بالإنجليزية، هذا الحماس يتضاءل كثيرا أمام الكتب العربية للأسف!

(42)

بوفيه مفتوح وتأمل مفتوح!

أعترف بدءا أنني لا أحبذ مطاعم البوفيه المفتوح، ولا أميل لتناول الوجبة فيها لعدة أسباب، أهمها أنني سأتناول طعاما لا هوية له.

ورغم ذلك فقد تغير موقفي الصارم هذا حين مررت بمطعم بوفيه مفتوح في مانشستر وقد وضع خارطة عالمية للدول التي يقدم لها أطباقا شهيرة، حينئذ المسألة اختلفت بالنسبة لي وأصبحت ثقافية نوعا ما.

حسنا، تناولت طبقي (الصغير) مقارنة بأطباقنا العربية، وأخذت دورة كاملة دون أن أضع شيئا ربما لأنني كنت أنتظر قدوم الأفضل، وحين عدت في الدورة الثانية وجدت بعض الأصناف قد نفدت، شعرت حينها أننا في سباق مع الزمن.

كل الثقافات تقريبا كانت مقدمة، الأصناف الفرنسية كانت نافدة تماما، همست داخلي: كراهية الإنجليز للفرنسيين لاتتجاوز إلى كره طعامهم بالتأكيد.

الأصناف الهندية كانت كثيرة جدا، هذا الشعب العجيب ذو الأديان واللغات الكثيرة!

الغريب أن أمريكا لم أجد ما يمثلها، هل ذلك بسبب أنها في الأصل ثقافات مجتمعة وليس لها هوية أساسا؟! تذكرت مصطفى العقاد رحمه الله حين لم يبد امتعاضه من جنسيته الأمريكية لأنها ليست جنسية عرق كالبريطانية والفرنسية مثلا وإنما هي أعراق وثقافات مختلفة.

اليابانيون وما أدراك ما اليابانيون؟!

الركن الوحيد الذي يخضع لطلب الزبون ويُطهى على مرأى منه هو ركن الطعام الياباني.. ياله من شعب منظم راق.

ما أود قوله ختاما هو أن نظرةً في طبق رفيقك كفيلة بتحليل شخصيته على الغالب بل وصحته أيضا.

(43)

جودة!

وصلت المعهد ذاك الصباح المانشستري الممطر الجميل كالمعتاد، ولكن كانت المفاجأة أن هناك من يشغل قاعتنا ولا نستطيع الدخول إليها! ظللت واقفا مع زملائي قرابة خمس دقائق. حتى حضر (جيمس)- أستاذنا -مندهشا من وقوفنا، لكنه تجاوزنا ودخل إلى القاعة ملقيا التحية على ذاك الرجل الخمسيني الجالس في زاوية الغرفة ومرافقَيه الشابين.

رحب به كبيرهم وأبلغه أنه من ضمن فريق مبعوث لتقويم جودة المحاضرة. بدأ الأستاذ وإذا بثلاثة آخرين ينضمون إلى سابقيهم ليصيروا ستة. لا ألوم جيمس في رعشة يديه التي بدت لي أنا على الأقل لقرب مكاني منه، فبعض الزملاء لم يحضروا أوراقا صورها لهم بالأمس فكان الأستاذ في موطن شك ربما أمام المقومين.

كنت أتساءل لِمَ أتوا لمحاضرتنا خصوصا دون الآخرين ذاك اليوم علما أن جيمس معار لمدة ثلاثة أسابيع وليس دائما في هذا

المعهد، هل هذا هو موطن امتحان المعهد؟ أعني مـــدى كفـــاءة الأساتذة المؤقتين الذين يستعان بهم؟

في بداية الدرس أراد جيمس أن يسترجع بعض قواعد اللغة المهمة التي مرت معنا الأسبوع الماضي، ومن الصـــدفة أنـــه لم يشارك معه بالإجابة سواي، الطريف في الأمر أني تذكرت حينها أستاذ الرياضيات في الصف الثالث المتوسط حين زاره الموجّـــه وأراد أن يثبت له استيعابنا فكتب مسألة رياضية على الســـبورة وسأل: (مين يحلها؟) فسكتنا جميعا، لكنه نظر إلي وقال (قوم يا ماهر) المهم أنني وفقت حينها بفضل الله، حين انتهيت سلم علي أستاذي وقبض على يدي مبتسما وكانت عيناه تفيضان بالشكر، هذه النظرة كانت نفسها في عيني جيمس ذاك الصباح!

أتساءل، لم قومي يرون الدخول على الأستاذ الجـــامعي في محاضرته خرقا لحصانته العلمية؟ هل الأمر علمي بحـــت؟ أم أن تقاليدنا وعاداتنا وقفت في الطريق كالعادة؟

(44)

نموذج!

بالتأكيد لن تكون أربعة أسابيع مدة ثرية بالتجارب كما لو كانت أربع سنوات، ولكني أعلم يقينا أن التأمل هو عماد الأمر كله، فتأمل يومٍ قد يفاجئنا بما لم يأت به خلو الذهن في عام.

كنت أحضر المعهد إنسانا بكل حواسه طالبا للمعرفة بكل أصنافها وليس فقط دارسا للغة الإنجليزية الأكاديمية، الأستاذ أيضا داخلي لم يغب، كنت أحاول أن أفيد من كل ما من شأنه تطويري مدرسا وباحثا وأكاديميا.

تأخرت يوما خمس دقائق عن بدء المحاضرة، اعتذرت وأخذت مكاني سريعا، نظرت إلى السبورة فوجدت صليبا مرسوما ومقارنة بدأت للتو بين عيد الكريسماس وعيد أستر النصرانيين! أعترف أنني بتركيبتي العربية المعروفة بسوء الظن، بدأت أتساءل عن سبب هذا كله. بعد لحظات سألتني الأستاذة: ماسبب الاحتفال بعيد أستر فأجبتها: لأنه ذكرى حادثة أخذ المسيح عليه السلام، ابتسمت وقالت حسب ماورد في الإنجيل، فقلت: ذكرى صلب المسيح حسب الإنجيل الموجود الآن، بعد

أن تحدثنا كثيرا عن العيدين، انتقلت بنا إلى عيدي المسلمين الفطر والأضحى، وبتفاصيل أكثر وحديث أطول. ما أريد قوله: إنني أجزم أنها لم تعن شيئا بالحديث عن أعيادهم سوى تطبيق اللغة بشكل أعمق من خلال ذلك الطرح غير التقليدي.

هذه الأستاذة كانت تلفت انتباهي بكثرة الملحوظات التي تدونها أثناء المحاضرات، أتساءل دوما ما الذي كانت تدونه عنا؟ في يوم ما لحظَت ضعف زميل لي في جانب تعبيري معين أثناء حديثه، في المحاضرة التالية دخل علينا زميلها بأوراق مصورة للتدريب على الجانب نفسه! علمت حينها سبب اجتماعاتهم القصيرة قبيل المحاضرة الأخيرة!

إنه التنسيق والعمل التكاملي، حيث يكمن الإبداع باسم الفريق والمؤسسة.

(45)

إدمان!

ما الذي يجعلنا أمة غير قارئة؟!لدينا الوقت ولـــدينا المـــال ولدينا الإمكانات فلم لا نقرأ؟

هذا السؤال ملحّ جدا كلما رأيت أوروبيا يقرأ في القطار أو الطائرة أو الباص أو وهو في قاعة انتظار!

هم يقرأون في كل أعمارهم مسنين وبـــالغين ومـــراهقين، رجالا ونساء. والكتب التي في أيديهم ليست آخر الإصـــدارات بالضرورة، في قطار ما، كنت عائدا من أدنبرة إلى مانشســـتر، تأملت رجلا مسنا وعلى يده رباط طبـــي قد لف على يده إثر جرح حسب ما بدا لي، كان الكتاب الـــذي في يـــده منتـــزَع الغلاف ويبدو عليه القِدم، أحسست أن القراءة بالنسبة له حياة ولا تتعلق بالمتعة أو بالتشويق فحسب.

في زيارتي لمدن بريطانيا الأخيرة وجدت الكتـــاب نابضـــا بقوة، وجدت الكتاب المستعمل ذا هيبـــة كأخيـــه الجديـــد. أخشى أننا أمة تكتب أكثر ممـــا تقـــرأ، وتكتـــب لتعيـــد مـــا قرأته!

ثمة سؤال آخر، ما سر غياب روايات الخيال العلمي عن أدبنا؟ ليس لدينا ما يذكر من روايات في هذا الجانب! وما سر نجاحهم في روايات الرعب؟ هل العقل العربي لا يبدع في الخيال العلمي والرعب بينما العقل الأوروبي متميز بهما؟ لو كان هذا صحيحا فلم إذن نجحت روايات هاري بوتر المترجَمة إلى العربية؟ لم أجد إجابة مقنعة حتى الآن وتستمر الأسئلة.

أعود فأقول: إن الأوروبي أو الأمريكي لا أظنه يقرأ من أجل الثقافة، القراءة بالنسبة لهم أصبحت عُرفا وتقليدا يوميا، أشعر أن الشخص منهم إذا لم يقرأ سيشعر بدوار، أي قراءة تلك التي يمارسها شخص لم يجد مقعدا في الحافلة؟ إنه التعود وربما الإدمان. ماذا لو جعلنا صغارنا يعتادون القراءة مثل الصلوات مثلا؟! ليتنا نفعل.

(46)

عبق الماضي!

كثيرا ما وجدت في أوروبا مسمى (old town) بمعنى المدينة القديمة.. مدينة عمرها قد يصل -وليس بالضرورة- إلى ما قبل عهد المسيح عليه السلام، ومع ذلك ما تزال نابضة بالحياة، مستمرة بالعطاء، لم يتنكر لها أهلوها بل زادوا احتفاء بها.

في هذه اللحظات الكتابية أشعر بمرارة شديدة وأنا أرى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبلها مكة تغيرت ملامحها تماما و لم تعد سوى مدينة مسلحة بالاسمنت كمئات المدن الأخرى غيرها.

من أجمل المدن القديمة التي زرتها مدينة لوسيرن السويسرية وأدنبرة الاسكتلندية وبروج البلجيكية. حسب ما رأيت فإن الزوار والسائحين يفضلون هذا الجانب القديم من المدن عن أجزائها الحديثة، ميزة هذه المدن القديمة أنها تُعد متاحف كبيرة بدون تذاكر دخول، الزائر يشعر أنه يسير بقدميه نحو التاريخ ويرفرف بجناحين نحو عوالم عجائبية.

دخلت مدينة أدنبره وكنت قد قرأت أن بهـــا 400 عقـــارا محميا من اليونسكو لكونه من التراث الإنساني، كنت أســـتمتع بضياعي في شوارعها القديمة، هناك حيث يكون الضياع وســـيلة للعثور على الذات!

في بروج سألنا صاحب الفندق بدهشة هل كنا قاصـــدين مدينته عن معرفة بتاريخها العريق؟ أعتقد أن الســـؤال يحمـــل في طياته الكثير عن نظرهم للسائح العربـــي الذي لايهتم بالتاريخ!

أتساءل الآن ما الجانب التاريخي الذي نفخر به؟ وأي حقبة من الزمن؟ وما دلائل هذا الاعتزاز والفخر؟ أعتقد أننـــا أمـــة تنكرت بقوة لتاريخها، ولذا لن يرتاح لها حاضرها ولا مستقبلها! ففي الوقت الذي تسارع فيه البلدان للاعتراف بتراثها القـــديم، فتجدده وتعيده للحياة، نقوم نحن بهدم بضعة مساجد تجـــاوزت الألف عام من أجل التطوير!!

(47)

امستردام!

امستردام.. المدينة المتمردة التي تتيح لك كل شيء مهما كانت اهتماماتك.

نعم هذه هي شخصية امستردام، الطبيعة المائية والحدائق والأزهار، المتاحف والجولات السياحية البديعة، كل ذلك مما يوجد في غيرها تجده لا يقل جمالا فيها. وفوق هذا كله نجد الممنوع في غيرها متاحا فيها! فلأول مرة أشاهد المارة أو الجالسين يدخنون الحشيش دون خوف من رقيب القانون، ولأول مرة أجد الدعارة مقننة ومتاحة أمام الجميع!

كان منظرا لا يُنسى أمامي، حين رأيت ذلك الرجل الشرق آسيوي خارجا من تلك الغرفة الزجاجية، بعد انتهائه من متعته الزائفة، كان يحاول تهيئة الجاكيت بعد أن ارتداه خارجا. هل كان مستعجلا في الخروج؟ كنت أتأمل هيأته، وكانت تدل على جديته ونظافته، همست حينها: ما أكرم ستر الله على خلقه!

حديثي ليس من الوجهة الأخلاقية أو الدينية، فكل الأديان تحرم هذا، ولكني أتعجب من مدينة شجاعة اختطت لنفسها

مسارا مغايرا عن سائر مدن العالم، بودي لو أعرف: مع هـــذا الانفتاح في هولندا مانسبة جرائم الاغتصاب والسرقات والعنف؟

في ذهني الآن المنهج الفكري القائم على سد الذرائع، المنهج الذي أودى بكثير من المباحات في بقع جغرافية أخرى!

التطرف سلوك واحد مهما تعددت وجهاته!

حين زرت أمريكا لم تكن لاس فيغاس بعيدة عني، ولكـــني قبل خمسة عشر عاما لم أكن مرتاحا لفكـــرة زيارتهـــا، تـــرى ما سيكون موقفي لو عادت بـــي الأيام الآن؟

زيارة مثل هذه المدن لا تعني بالضرورة أنك ستفعل في روما كما يفعل الرومان، إنه الاستكشاف وليس الرائي كمن سمع!

(48)

بعيدا عن النجوم.. مجددا!

متى سيكون وصولكم حتى يتسنى لنا أن نخدمكم على الوجه الأمثل؟

رسالة تكررت مرتين من صاحب الفندق في مدينة بروج البلجيكية، وقريب من مضمونها رسالة أخرى من فندق في امستردام.

مثل هذا الحرص لست معتادا عليه، فهل كانت مؤشرا حقيقيا فعلا للاهتمام والإتقان؟

كلا الفندقين تملكه عائلة الأول لزوجين وابنهما، يملكان مطعما في وسط المدينه يبعد مسافة ربع ساعة سيرا على الأقدام ويعملان فيه بكد وإخلاص، يضطر الزوج لاستقبال ضيفه الجديد في الفندق إذا علم منه وقت وصوله.

أما الثاني فمملوك لزوجين ستينيين هو مخرج سينمائي وهي ممثلة سابقة تدير متجرا ملاصقا لبيت الضيافة.

هل من الغريب أن أقول إنني شعرت بدفء الأسرة وجمال الترحيب؟

لكن يبقى الأجملَ تكاتف الأسرة وتناغمها في إدارة عمل مشترك وإن كان شاقا.

كنت أشرت إلى فندقين عائليين قبل هذا، هذه الفنادق تشترك جميعا في حفاوتها بنزلائها صباحا في وجبة الإفطار، كنت أتذكر دوما وقتها أسطورة الكرم العربي وأعقد مقارنات، الكرم ليس عربيا فحسب بالتأكيد.

في فندق امستردام استُقبلت وأخي لمدة لاتقل عن ساعة، أعتقد أن الغرض كان محاولة فهمنا والتعرف علينا عن قرب، لأننا في النهاية سنكون جزءا من منزلهما ولو لليلة واحدة.

هذه الحياة لها أكثر من طريقة لنعيشها، مايتجاوز الخط الأحمر منها قليل جدا جدا! أقول هذا وأتمنى أن نتعلم أكثر وأكثر وأكثر.

(49)

نحو الحقيقة!

الأسرة الغربية ليست متماسكة كالعربية، والأم العربية لاتضاهيها أم في حنانها وعطائها.

نشكو دائما من الصور النمطية التي رماها بنا الغرب والأمريكان، والمسألة فلسفية ثقافية تنبع من طريقة نظر كلٍ للآخر!

الصورتان النمطيتان أعلاه من إفرازات ثقافتنا ورؤيتنا للآخر الغربي، ولا أظن عربيا لم تمر عليه إحداهما، فهل نحن منصفون؟

في رحلتي الأخيرة لبريطانيا لفت انتباهي تعدد أفراد الأسرة الأوروبية، من المعتاد جدا أن أرى زوجين يصطحبان ثلاثة أطفال إلى الحديقة، منظر الأجداد في صحبة أحفادهم كان يتكرر أمامي، ومشهد الأم الرؤوم على طفلها لم يغب كذلك.

ما الحاصل إذن؟ أتذكر أستاذة في إحدى اللقاءات بمانشستر كانت تحكي لنا عن حبها الشديد للسفر في الإجازات وأن لاشيء يدعوها لتغيير خططها سوى حرصها على قضاء

وقت أطول مع والديها!أليس هذا نموذجا راقيا للتماسك الأسري وبر الوالدين؟

لاشيء يعيق التواصل وفهم الثقافات الأخرى كالصور النمطية، أفكر الآن في صورنا المشوهة لدى الغرب وكم من الدمار سببته!

بناء الصورة النمطية – إنْ توافر حسن النية– غالبا مايكون على أساسٍ واهٍ من عدم فهم الآخر. حين نفهم عدم استقبال الزائر في الغرب إلا بموعد مسبق، على أنه خارم لمروءة الضيافة، فهذا حيف كبير منا، لأن احترام الوقت ثقافة أساسية لديهم خلاف ما نحن عليه، والأمثلة تطول وكثيرة.

بقي أن أقول: إن خير وسيلة للعلاج هنا تكمن في السفر.. ليس السفر بناء على ما في أذهاننا.. بل السفر لبناء أذهان تعشق الحقيقة.. ولا شيء غير الحقيقة!

(50)

الوداع!

في رحلتي الأخيرة كسرت حاجز الشهر، أي البقاء بعيـــدا عنها لأكثر من شهر، اكتشفت في داخلي زاويةً مخيفة، وهي أنني أستطيع الصبر شهرا عن أشياء كثيرة، منها الانتقال خارج مدينتي الأثيرة. ربما أصبح الأمر منطقيا بعد أن فقدتُ أشياء مهمةً قبلها، لكن الأمر حصل بسرعة على أية حال.

في السفر لحظات خالدة مع المكان، لحظـــة اللقـــاء الأول، لحظة التعارف، لحظة اكتشاف سر جديد، لحظة الصُدفة التي لم نستعد لها، وتأتي لحظة الوداع محمَّلة بكثيرٍ كثيرٍ من الأسئلة التي لا إجابة لها..

وغدًا سيبدأ موعدُ
وسينتهي أمدٌ قريبٌ مُبعَدُ!
سأودّع المدن التي احتضنت رفاتا ذاهلا
وتسامحت لما ذوى أمسٌ خليٌ مسعِدُ
أتعودُ... ؟ هل هذا الخيارُ الأوحدُ؟
مازال في جنبيكَ صوتٌ بالتغرّب يُرعِدُ!

كل القطارات التي لاقيتَها
كل المسارات التي صافحتَها
كل الخيارات التي أخطأتَها..
صححتَها...
نقطٌ تلاقت دون قصدٍ
كلها لم تحكِ أن العَود عودٌ يُحمدُ!

***

لو كان من شأن النوافذ أن تقصّ على الملا
أو أن تذكّرنا بما قد مرّ في نور العيونْ
لو كان من شأن السحابِ يعدّ لي ما قد تدفّق من خطًى
أو أن يرافقني إلى وطن الحنينْ
لو كان من شأن الوجوه ترمّم النسيانَ
أو حتى تقود إلى النجاةِ التائهينْ
لو كان ذلك...
كلّه أو بعضهُ
لانـــزاحت الأسفار عن كتف السنينْ
ولصار حتما أن يفوز الراحلونْ

***

لَمَ لا نلاقي من نحب على سوى نبضِ السفرْ؟
لَمَ كل من ودعتُ ما رد السلامَ ولا اعتبرْ؟
لَمَ ذا الفراغُ اكتظّ حين حسبته قد ذابَ في شوق البصر؟
لَمَ عَمّ صمتٌ في المباني...
هل يريح الصمتُ أشلاءَ الحجرْ؟
لَمَ داخلي شيءٌ يقول: أننتظرْ؟
لَمَ بائعُ الأزهار غاب عن النظرْ؟

***

أنا عائدٌ.. لكن تُرى
ما الجزءُ مني قد تبقّى للزمنْ؟
ما الكلُ مني قد تحفّز للوطنْ؟
ما الشِعر بـــي لولا مراودة الوهنْ؟!
لا تسألوا ماذا اكتسبتَ من الترحّل واسألوا:
ماذا تركتَ هناك منكَ
وما تُرى..
كان الثمنْ؟

المؤلف في سطور

د. ماهر بن مهل الرحيلي

شاعر وأكاديمي من المدينة المنورة.

صدر له:

- ثلاث مجموعات شعرية:

(في سكون الليل -1429)

(ما بعد السكون-1433)

(مداي-1434)

ومجموعة رابعة معدة للطبع.

- وله أكثر من عشر دراسات في الأدب والنقد منها:

التجربة الشعرية بين شوقي والغزاوي

المعارضات في الشعر السعودي

السخرية في الشعر السعودي

الإحساس بالعمر باعثا شعريا في تجربة غازي القصيبي

البعد الإنساني في القصة السعودية القصيرة جدا، مجموعة حلم لحسن الشحرة أنموذجا.

نقد الرواية لدى الروائيين السعوديين، مقاييسه وسماته

رواية الطفل في الأدب السعودي، إجازة الشمس لعلي المجنوني أنموذجا رائدا

www.alrehaily.com

https://twitter.com/Alrehaily_Maher